عم معتوق

الكتاب :

الكاتبة :

تصميم الغلاف :

تنسيق داخلي : هبة خليل

مراجعة لغوية :

الطبعة : الأولى

رقم الإيداع:

الترقيم الدولى :

الناشر : السعيد للنشر والتوزيع

المدير العام : لمياء السعيد

برج الهادي – الدور الأول ٣٦ - ش عبد الحميد الديب – شبرا مصر

٠١٥٥٠٠٩٦٢١٥ – ٠٢٢٢٠١٧٢٦٠

elsaidpublisher@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

مقدمة

هناك أناس يعيشون بيننا بلا وجود. ليس لهم حاضر وماضيهم مجهول. بعضهم يحدق فقط بلا معنى وبعضهم في رعب دون مبرر والبعض ضاحك بلا سعادة..

نصفهم بالمشردين أكثر صراحة والفقراء أقل واقعا. لا نعرف لهم منبتا كأن الأرض انشقت وخرجوا منها. قد نزدريهم وأحيانا نتعطف معهم ولكن لا نعرف ولا نهتم أن نعرف كيف كان حالهم قبل سقوطهم فى هذا المصير.

١

عم معتوق رجل يبدو قصير القامة لا يعرف أحد ملامحه . تحدب ظهره تقوس كأنه معلق على أرجله .سيره على الأرض متسارع ومتعثر كأنه يكاد يسقط في أي لحظة .يتوقف المارة يحبسون أنفاسهم كأنهم يسندوه في سيره .عندما يتوقف ليتملك من توازنه يتوقف معه الكون كأن الناس قد نسوا ما حولهم وأصبح خبره لحين بلوغه حجر الرحى هو رحلة الحياة في تلك اللحظات .عندما يجلس تعود الحياة وحتى الذين يضحكون تعود لهم قلوبهم التي سقطت منهم تحت أرجلهم . عندما يستقر في موقعه يتناسق جسده ويعمه هدوء تام وتطول قامته .لا يتحرك فيه إلا عيناه اللتان ترقبان كل ما حوله.

يظل جالساً طوال يومه في نفس المكان أمام الحانوت العتيق يرقب المارة لا يتجاوب مع تحية أو مداعبة من أهل الحارة الذين اعتادوا عليه مثل حجر الرحى القديم الذي يجلس عليه

كأنه جزء منه .سرواله الطويل لا تظهر منه سوى أظافر قدميه الغليظة .يغطى رأسه بعمامة قصيرة تختفي أذناه خلفها. شاربه الكث وذقنه الأشعث يخفيان فمه تماماً وتختفي معالم أنفه ولا يتبقى منه سوى عينيه المشعتين وفوقهما حاجبان كثيفان .تدور الشمس حوله ولا تطاله طوال اليوم كأن مجلسه تم اختياره بدقة محسوبة في دوران الكون. تتبادل عليه ظلال البنايات من حوله حتى غياب النهار. لا يعرف أحد متى يفارق ويظل وحده عندما يهجد الناس وتقفر منهم الطرقات كتمثال منحوت على متن الحجر تحت ضوء القمر.

منتصف اليوم يأتي الفتي سعيد بالطعام يحمله على منضدة قصيرة ويضعه أمام عم معتوق بحذر شديد بحيث يستطيع أن يطاله دون أن يبرح مطرحه .يحضر الفتى مقعدا خشبيا من أمام الحانوت ويضعه أمام المنضدة الخشبية الصغيرة العتيقة وينسحب بهدوء .حيال ذلك لا يبدي عم معتوق أي حراك كأنه منحوت ولكن عينيه تجولان داخل كل خلجات

سعيد الممتلئ رهبة أمامه .يغادر الكناني الحانوت فور انتهاء سعيد من طقوس تحضير الطعام ويجلس على المقعد الخشبي أمام عم معتوق .تلك الوجبة هي التي ربطتهما ثمة علاقة بين الرجلين لم يكترث لها أحد.

الفتى سعيد منذ أن اتي للحارة صبياً اتخذ مكانه بين حانوت الكناني ومجلس عم معتوق .نسى الناس ظهوره الغريب في الحارة بعد أن شبّ وأصبح جزءا فاعلاً من المجتمع .كان صبياً هميماً كسب ود الجميع وصار اسمه في كل فم يطلبون مساعدته .سمح له الكناني بالنوم داخل الحانوت بدلاً من على عتبته .شب فتياً في الحارة وبحضوره وهمته صار زبوناً موثوق للقادمين من الريف في الفجر ومركزهم بالقرب من حجر الرحى العتيق .تجارته قامت على الطيور وصار خبيراً في اقتناء الجيد منها وهميماً في توزيعها والابتسامة لا تفارق وجهه .صار لديه زبائن دائمون ومورد موثوق به لعدد من مطاعم الحارة .في خضم ذلك لا ينسى تهيئة مجلس عم معتوق بعد أن ينحسر حشد الريفيين حول الحجر العتيق .

داوم على فتح حانوت الكناني صباحاً ومساعدته حتى بعد أن اقتنى غرفة صغيرة قبالة المتجر على الجانب الآخر من الطريق.

في صبيحة أحد الأيام راقب سعيد من نافذة غرفته الكناني على غير عادته ليس خلف الطاولة العريضة أمام المتجر المليئة بالبقوليات بكل أنواعها وبجانبه جوالات العدس والأرز والبن .وخلفه خزانة على طول الحائط مكدسة بالبضائع المعلبة والمغلفة يجلس وسطها كأنه خلق هناك .لا يغادر مكانه إلا عندما يحضر الطعام أمام عم معتوق .يخرج ويجالسه بصمت وهو يشاركه الطعام.

راقب سعيد الكناني بجانب الحجر العتيق يرقب الأفق ويذهب إلى الحانوت ويتوقف بجانبه محتمياً من ضوء الشمس التي لم تكن حامية بعد ويعود مرة أخرى بجانب الحجر الصخري الضخم .

التصق سعيد بالنافذة يراقب باهتمام .هرول داخل الغرفة يبحث عن مقعد يجلس عليه وقد أنهكه انحناء ظهره أمام النافذة المنخفضة التي تكاد تلامس الأرض .عندما عاد لم يجد الكناني بجانب الحجر أو داخل الحانوت .بنفس اللهفة ارتدى ملابسه وخرج مسرعاً على الدرج وعندما وصل خارج البناية رأى الكناني يجلس على حجر الرحى بعيداً عن مجلس عم معتوق المعهود. تباطأت خطواته وأخفى فضوله قاصداً مجلسه .بعد تردد كأنه يبحث سبب للحوار قال له:

عم معتوق تأخر اليوم على غير عادته!

لم يعتن الكناني بحديثه وترك مكانه بتثاقل نحو الحانوت ودلف داخله وجلس في مكانه المعهود.

لم يأت عم معتوق ذلك اليوم ولم يهتم أحد لغيابه ولكن اعترى الجميع شعور غريب في تغيّر المشهد المعهود .سعيد كان الشخص الوحيد المهتم لغياب عم معتوق .على غير عادته تردد على المكان عدة مرات ولكنه امتنع عندما رأى الكناني

يتابعه بنظراته .أتى بالطعام منتصف اليوم ووقف متردداُ ينظر للكناني .عندما لم يجد تجاوبا منه وضع الطعام بالقرب من طاولة الحانوت وانصرف دون سؤال.

صبيحة اليوم التالي اهتز وجدان الجميع لخبر مقتل عم معتوق .تجمع الناس أمام حانوت الكناني المغلق وحول الحجر العتيق وهم لا يعرفون لهما عنوان غيره .بشاعة القتل وتمزيق الجثة الوحشي كان أكبر من الموت .تم العثور على أعضائه في أنحاء متفرقة واختفى تماماً أحد أصابع يده اليمنى .كانت الصدمة والدهشة على الوجوه ولم يكن أحد قد تخيل أن ذلك الرجل له أعداء يكنون له ذلك الغل والغبن .كان معلما بلا روح جزءا من حجر الرحى القديم .الكل يعرف اسمه ولكن في تلك اللحظة لا يجزم إنسان من أين عرفه .لم يتحدث يوماً مع أحد ولم يتحدث عنه أحد ولا يعلم أحد من أين يأتي وأين يذهب .يأتي مسرعاً متعثراً كأنما تقذف به الريح ويجلس جامدا كالصخر فوق ذلك الحجر. لم يره أحد يفعل شيئا حتى عند الأكل يحجبه الكناني بجسده الضخم.

٢

مر الزمن وقد نسي الناس عم معتوق كعادة البشر إلا سعيد الذي ملأته الأحداث وقد تزامن اختفاء الكناني مع موت عم معتوق وهو الذى تفتحت عيناه عليهما وتلمس طريقه في الحارة بجوارهما .تحت التشجيع الصامت من الكناني ونظرات عم معتوق التي تتبعه نما فيه ارتباط طفل يبحث عن متكأ حتى لو في خياله.

ذات يوم لاحظ سعيد الكناني يفتح أبواب حانوته الذي لم يُفتح منذ تلك الحادثة .هرول إليه بملابسه التي عليه داخل المنزل يساعده في فتح الباب العتيق الذي استعصى عليه وقد احتك بالأرض .أفسح له الكناني بابتسامة عريضة لم يرها في وجهه من قبل .فتح دفتي باب المتجر وساعده في إخراج الطاولة العتيقة الضخمة .ظل يراقبه من طرف خفي يفرغ ما تلف من الأشياء بدون تذمر أو سخط .عندما فارقه لم تفارق ابتسامته العريضة تلك مخيلته.

أصبحت مراقبة سعيد للكناني شغله الشاغل .يراقبه من نافذة الغرفة ويتحين المرور لإلقاء التحية ومجاذبة الحديث معه الذي يلقى له هوى لدى الكنانى على غير عادته .

ذات يوم ومن خلال نافذة غرفته شد انتباهه امرأة تلتف بالسواد عند الحانوت هب لها الكناني على غير عادته يحادثها . أفسح لها أحد الجوالات فتسللت داخل الحانوت ووقف هو خارج المتجر يرقب الطريق بطريقة استثارت ريب سعيد .لم تغب المرأة طويلاً وخرجت مغادرة دون أن تلتفت إلى الكناني بنظرة وداع.

على عجالة ارتدى سعيد ملابسه وهرول على الدرج قفزاً حتى لا يفقدها .تتبعها عن بعد حتى غادرت الحارة وطرقت طريقا غير مأهول مغطى بحشائش الخريف العملاقة .وقف يرقبها حتى توارت خلف بقايا تلال الحديد ما تبقى من بقايا هياكل المركبات التي خلفّها الغجر .قبع في مكانه طويلاً ينتظر خروجها قبل أن يأخذ قراره بالذهاب للبحث عنها توغل بين

البقايا الصدئة التي تخللتها الأعشاب كأنها تنمو عليها .تراءى له سماع حركة خلفه وقبل أن يلتفت هوى على الأرض بضربة قوية على رأسه. التفت ورأى وجه المرأة الحازم قبل أن يفقد وعيه.

عندما أفاق سعيد كان كأنه خارج من بئر عميقة لا يذكر شيئاً .تلفت في الغرفة الواسعة المليئة بالخزانات المرتبة بذوق هادئ .تسللت نظراته تمسح المكان بعناية ويعتصر ذاكرته الضبابية الأحداث. جفل عندما وقعت عيناه على امرأه مستلقية في استرخاء على مقعد وثير تحدق به بنظرة جامدة . وجهها كأنه منحوت من الصخر خال من كل تعبير رغم تناسقه بمسحة جمالية كأن فنانا صنعه ونسي رسم ابتسامة على فمها وعمداً أطفأ البريق من عينيها.

حاول سعيد النهوض ولكنه ترنح وقد ارتجت الأرض تحت قدميه وأصاب رأسه دوار فآثر الجلوس .قامت المرأة متثاقلة ولكن أنبأت حركتها عن جسد قوي وظهر ساعدها رغم

التفافه الأنثوي المتدفق كان مفتولا ومليئا فتوّة .أتت بقطعة قطنية وبللتها بسائل داكن من قنينة أخرجتها من إحدى الخزائن .توجهت إليه تنظر إلى رأسه .تناولته كشيء منفصل من جسده وأخذت تبلل الجرح بمسح بطيء .أسلمها رأسه دون جدال وبرهبة وتهيب سألها:

من أنت؟

إجابتها بضغطة غليظة على الجرح تأمره بالصمت .تأوه بجلد وواصلت هي مسحها بدراية. استلقى على الفراش كما أمرته بإشارة حازمة من يدها وعادت إلى مقعدها ترقبه فتيقن أنه فقد حريته .

ظل صامتاً ينتظر ما سيأتي وقد فارقه الخطر بعد اعتنائها به . انتبه لحركة داخل الدار لشخص قادم .تحفزت كل جوارحه وتيقن مصيره قد دنا .ارتخت أوصاله ولم تفارقه الحيرة بل صارت أكبر عندما ولج الكناني إلى الغرفة .بدون أن ينظر إليه توجه إلى المرأة التي أخلت له المقعد وغادرت الغرفة دون أن

تنظر إليه .جلس الكناني على المقعد الوثير بتمهل ورفع عينيه يرمق سعيد مطولاً كأنه يؤنبه .سأله بهدوء بنبرات تأكد له أنه يسمع صوته لأول مرة كشخص آخر لا يعرفه:

.لماذا تبحث في موت معتوق ومن خلفك؟

تدفقت الدموع مدراراً من عيني سعيد وتملكه الخطر فرد بصوت يكاد لا يخرج من فمه:

.أقسم أني ليس خلف ذلك ولا يوجد أحد خلفي.

عم صمت ثقيل واستمر الترقب حتى بعد دخول المرأة التي لاذت بركن من الغرفة تنتظر وكلها ترقب .خيّم صمت على المكان قطعه الكناني بقيامه بتثاقل وغادر الغرفة .وتبعته المرأة بنظراتها مستنكرة حتى غادر الغرفة تماماً .رمقت سعيد كأنها تتوعده وتحركت تلحق بالكناني.

عادت وحدها بعد وقت قصير تحمل كوبا من الماء. وحبلا طويلا. فهم سعيد فوراً في نيتها الرحيل وسوف تشد وثاقه . تناول كوب الماء وجرعه دفعة واحدة ووضعه بجانبه .أطاعها تماماً ودموعه تتقطر وهي توثق يديه خلف ظهره .تمدد على الفراش كما أمرته بإيماءة من يدها وأوثقت قدميه بباقي الحبل.

لم يحس سعيد متى غفلت عيناه وأفاق منفعلاً والمرأة تتحسس جرح رأسه بيدها .لم تهتم لقلقه وشرعت في تنظيف الجرح .أوقفت عملها ووضعت القطعة المبللة على الطاولة وحلت وثاقه وأمرته بإشارة من يدها بالجلوس .أكملت عملها وجعلت الطاولة أكثر قرباً منه وتناولت طعاما كان أعلى الخزانة ووضعته أمامه على الطاولة وعادت إلى مقعدها .تناول طعامه وهو يرمقها خلسة .كانت عيناها أكثر هدوءا وجلستها بها استرخاء فارقته العدوانية.

عندما حضر الكنانى غادرت المرأة دون أن تنظر إليه .جلس في مكانها وراقبها حتى خرجت تماماً فأحس سعيد بالجفوة بينهما . عندما تلاقت عيناه مع الكناني أجاب على تساؤل عينيه قائلاً:

إنها بنت معتوق

اتسعت عينا سعيد وكان قد تملكه أنها قاتلته. قبل أن يفوق لتساؤل آخر بادره الكنانى قائلاً:

هي التي قتلته

اهتز كل كيان سعيد وارتعش جسده كمن أصابته الحمى . تعثرت الكلمات في فمه واختلطت وهو يهمهم:

لمادا قتلته يا عم الكناني؟

تجاهل تساؤله ورد عليه:

أسمى عبود والكناني كان جدي.

بعد صمت قصير واصل عبود:

والد معتوق

تبلد سعيد وكأنه يرتب الحديث لنفسه ردد:

جدك الكنانى هو والد عم معتوق؟

صمت عبود كان تأكيداً فتسارعت الأسئلة في رأسه وفارقته آلام الجرج ولكنه تلجم وهو يسمع خطوات المرأة قادمة. لم يهتم عبود لها واستمر في حديثه كأنه يتعمد إشراكها.

.والدة معتوق كانت مملوكة لجدي زمن العبودية .أنا ومعتوق قدمنا إلى الدنيا في نفس اليوم .جدي كان محتفياً بقدومي من ابنه الوحيد وأعتق طفله احتفاء بي ولديه إخوة آخرون قبله لم يعتقهم.

قال بعد صمت كأنه يلتقط ذكرياته:

.لذلك أسماه معتوق.

عم صمت ثقيل بعودة المرأة التي سمعت حديث عبود الأخير فرمقته بكثير من الاحتقار وعدم المبالاة.

٣

كان الكناني الكبير يملك نصف المدينة .لا يعرف أحد له أصلا ومن أين ومتى أتى .تدور الهمهمات أن جده قادم من أعالي البحار وكان يعمل جلاداً لدى سلطان في بلد نسجت حولها الأساطير في القوة والبطش .تربصت ممالك أخرى بتلك المملكة وضيقت عليها الحصار .اجتاحتها المجاعة وانقلبت الحاشية على ملكها .هرب مع عائلته والمقربين إليه على متن مركب شراعي ضخم كان معدا لذلك محملا بكنوز من الذهب والفضة واللآلئ والحرير.

يدور الهمس أن جد الكناني تآمر عليه واغتاله في عرض البحر وحول مسار المركب إلى غير وجهته ورسا على هذه الأرض .أساطير وروايات أخرى كثيرة يرويها البعض تتفق على وصوله على متن البحر.

زوجة الكناني الحفيد لم يرها أحد ويقال إنها توفيت ويذهب البعض بأنها هربت من تجبره وقسوتهز. وصل تلك المدينة مع طفله وكانت حينها قرية كبيرة ملتقى تجار البلاد. استقر فيها وملك نصفها ويقال إنه كان يجبر أهلها على البيع بالتهديد وإجبارهم بحظرهم في تجارتهم وزراعتهم .لم يتزوج مرة أخرى ولكنه ملك عددا من الجواري من مختلف أنحاء البلاد.

والدة معتوق لم تكن محظية لديه ولم تكن هناك حظوة لإحداهن فقط صادف يوم مولده يوم مولد حفيده .نشأ معتوق تحت سقف الكناني لا يعرف والدته وهي على بعد خطوات منه ولم تتجرأ هي من الاقتراب منه. والد عبود كان غائبا دائماً في سفر متلاحق هروبا من سطوة والده .ورث منه مجونه وكثرت عشيقاته في أنحاء البلاد .لم يعرف معتوق له والدة سوى والدة عبود التي كانت لاهية عنهما ماجنة مع خدم الكناني تبدل الرجال كما تبدل ملابسها وهي الآمرة والناهية ولا تبدي اهتماماً بزوجها الغائب ولا تكون في استقباله عند عودته.

معتوق في صباه كان مغامراً جريئا وكان عبود مترددا كثير الانطواء يجد في رفقة معتوق كثيرا من الحماية رغم تعرضه معه للأخطار. الخطر المحدق بطفولتهما كان سطوة الكناني وبطشه بأعدائه ورفقائه على حد السواء .رغم خوفهما منه لحد الرعب هيبته جعلت لهما حماية وتهيبا من الكل لصلة دمهما به وقد استغل معتوق ذلك كثيراً في مغامراته الصبيانية الجريئة.

ذات ليلة ماطرة تسلل معتوق يتبعه عبود إلى الجزء الخاص بالكناني الذي لا يدخله أحد غيره .تردد أن أحد الفلاحين تمرد ورفض دفع حصة الكناني من المحصول وهرب مع زوجته إلى مدينة أخرى ولكن كان هناك همس أنه في قبضة الكناني. اختبأ الصبيّان داخل غرفة تطل على البهو الفسيح الذي يجتمع فيه الكناني برعيته كل صباح.

الصبيان يعرفان خبايا المنزل منذ طفولتهما لحرص الكناني على مرافقة حفيده عبود له في مجالسه ومعتوق دائماً مرافقاً له .كان التابع المطيع لرفيقه عبود في حضرة الكناني ووحدهما كان التابع الحقيقي هو عبود يسيّره معتوق كيفما يشاء.

أتى حارسان يسحبان رجلا وامرأة في مقتبل العمر .أوثقاهما على فراشين منفصلين ثم شرع أحدها في تكميم فم الشاب . فور انتهائه شرع الآخر في تمزيق رداء المرأة فتلوى الرجل بأنين مكتوم وصمتت المرأة مشدوهة وقد اعتلى وجهها رعب وكادت عيناها تتمزق وهي تفتحهما دهشة وهلعا ودموعها تنفر منهما كزخات المطر .خرج الرجلان بعد أن أوصدا كل الأبواب منهما باب الغرفة التي يختبئ فيها الصبيان فسقط في أيديهما ولا سبيل للهروب .

ظلا ردحاً من الزمان يرقبان الرجل يتلوى حتى همد وقد فشل تماماً من حل وثاقه. استكانت المرأة وخبا أنينها كأن الحياة قد فارقتها.

دخل الكناني الغرفة وراقبهما بازدراء وتعداهما إلى غرفة أخرى غاب فيها قليلاً وعاد وقد بدل ملابسه ويحمل في يده سوطا قصيرا صلبا مثل الذي يقود الفارس به الجواد .وقف قبالة المرأة ومرر السوط على جسدها حتى بلغ بين فخذيها .بدأ مداعباً بالسوط وفجأة دسه داخلها فصرخت بألم وفجيعة . تلوى الرجل وأصدر آهات كأنه يتكلم .ترك الكناني المرأة السوط داخلها وذهب إليه .حرر فمه ونظر إليه يحثه أن يعيد ما قاله .صاح الرجل بصوت موجوع لا حيلة فيه:

أنت حقير سأقتلك أيها السافل.

حدقه الكناني بنظرة ازدراء وتحرك بتمهل وأتى بخنجر من إحدى الخزائن .نظر إليه في وجهه يحثه بتحد ترديد ما قاله . تساقطت الدموع من عيني الفتى اليانع وردد في أصرار:

أنت حقير ونذل.

طعنه الكناني في حلقه من تحت ذقنه فتحشرج الصوت في فمه .رمقه قليلاً باحتقار وبحركة أخرى أكمل غرز الخنجر

حتى نصله فأخرسه إلى الأبد .ترك الخنجر عالقا فيه وعاد إلى المرأة التي كانت تتلوى وتصرخ بصوت ضائع. استل منها السوط فشهقت بصوت مسموع كأن روحها خرجت معه . ضربها بالسوط بقسوة على وجهها عدة مرات وغادر الغرفة .

بعد زمن مرّ كأنه دهورا على الصبيين عاد الرجلان وأخذا جثة الفتى وعادا ونقلا المرأة بسحبها على الأرض كأنها ميتة .عادا مرة أخرى وشرعا زمنا ليس بالقصير في تنظيف المكان وإعادة ترتيبه.

تحرك معتوق داخل الغرفة يبحث عن سبيل للهرب حتى وجد منفذا من نافذة في نهاية الغرفة .عاد إلى عبود الذي كان منهارا تماماً من هول ما رأى جالسا على الأرض مخلفاً تحته بركة من البلل .أجبره معتوق على النهوض وخلع عنه ملابسه وجفف الأرض وارتداها مرة أخرى ودفعه أمامه وخرجا من النافذة.

ليلتها أصيب عبود بالحمى ولم يفارقه معتوق طيلة ثلاثة أيام على الفراش وحال بينه وبين كل متسائل خوفاً من اكتشاف سرهما.

٤

أفاق عبود بوقع خطوات متسارعة تعبر غرفته المجاورة للغرفة التي بها سعيد موثوق الأيدي. تناول قضيبا صلبا يحتفظ به تحت فراشه أتى به من مخلفات حارة الغجر .تسلل خلف المرأة يرقبها في الظلام واشتدت قبضته على القضيب متحفزاً وهي تقترب من فراش سعيد .ارتخت يده على القضيب وهي تجلس بجواره وتزيح الغطاء من الجزء الأسفل منه.

انتفض سعيد رعباً فطبقت بيدها على عنقه بقوة تهمده في مكانه .ارتخت قبضتها عن عنقه قليلاً ويدها الثانية تداعب أسفله كأنها تنبئه بمرادها .سكن سعيد وتابع سعيها بكل أحاسيسه والدموع تنهار مدرار من عينيه .أرخى كل أوصاله حتى استطاع أن يتجاوب لها .رفعت ردائها من الخلف واعتلته.

بعد تمكنت منه تماماً حلت وثاق يديه وفي صمت تام صارت تسوقه .تأكد من قضائها لوطرها بعد تنهيد مكتوم منها وكادت تقتلع لحم صدره غارزة أظافرها فيه .كتم أنفاسه مبتلعا كل

الألم حتى هدأت وغادرته على دفعات متعثرة. لم تعد وثاق يديه ولكنه فقد حراكه وهو يحس بها لم تغادر الغرفة وقد جلست على المقعد الوثير.

أفاق صباحاَ ورمقها غافية على المقعد .لم يعمد لفك وثاق قدميه ولكنه حاول الاعتدال في استلقائه .فتحت عينيها كذئبة غاضبة كأنها تنذره فعاد إلى استلقائه وعادت هي إلى غفوتها . تأملها طويلاً فكانت أكثر جمالاً وهي نائمة كأنها امرأه أخرى . عندما أفاقت نظرت إليه شزرا لتحدقه بها .لم يسحب عينيه منها وسألها:

ما اسمك

لم تجبه ولكن ارتخت نظراتها ليس تقبلاً للسؤال فقط تنازلت من العدوانية .

دخل عبود الغرفة تلك اللحظات فغادرت هي من باب آخر دون النظر إليه كأن الغرفة لا تسع كليهما. جلس عبود على

المقعد متمهلاً ودون أن ينظر إليه قال له كأن الحديث لم ينقطع:

اسمها عطية

صمت كأنه ينظر إلى زمن سحيق وقال كأنه يسحب تأكيده:

.هكذا كانت تناديها أمها

انتبه سعيد وكأنه يريد للحديث ألا ينقطع قال له:

.أين أمها الآن

نظر إليه عبود بثبات حتى لا تفوته خلجاته عندما يتلقى رده قائلاً:

قتلها معتوق

انهار كل ما بداخل سعيد وتيقن من محنته .أصبح كفأر في مصيدة وندم كل الندم على فضوله الذي أوصله هنا وكان قد

شفي من ذكريات طفولته وقسوة ذلك الوحش الذي كان هو وأمه سجينان لديه ولم يحسب يوماً عودته لذلك الكابوس.

اختلى سعيد بنفسه بعد أن ذهب عبود وتنفس الصعداء عندما أوثقت عطية وثاقه مطمئناً لغيابهما. استلقى على المخدع وتذكر أول يوم تقابل فيه مع عم معتوق ولكن سرعان ما طرده من مخيلته بعد أن صدمته عيناه المشعتان.

الذي يعرفه سعيد عن والده كان جنديا ذهب إلى الحرب ولم يعد .كان طفلا لا يعي ما حوله فقط عالقة في ذهنه صورة والده بملابسه العسكرية التي مذقها ذلك الرجل وهو مخمور . وجه والدته الصامت المنهك لا يفارق مخيلته .كان يسمع صفعات ذلك الوحش المتواصل لها ولا يسمع منها أنينا أو بكاء. يتيقن كل ذلك اللطم كان على وجهها فقط عندما يراها .تعلم منها البكاء في صمت عندما يناله الضرب من ذلك الرجل. يتكور علي الحصير خلف الباب عندما يسمع دبيبه على الدرج عائدا محمورا .يتلقى الركلات على ظهره وعلى رأسه كأنها على

شخص آخر ولا تسيل دموعه ألا بعد أن تبلغ أذنيه الصفعات على وجه أمه.

اليوم الذي لا ينساه عندما هرب من المنزل .بعد أن تلقت والدته الصفعات التي يدفن لها وجهه في الحصير يتمنى أن تنتهي، فجأة خرج الرجل من الغرفة مترنحاً وغاب في غرفة الطبخ الضيقة وعاد يحمل مدية ضخمة وولج إلى الغرفة. سمع جلبة عراك وأشياء تتحطم في صمت تام. تراءى له صوت أنين وارتطام .بعد صمت سمع ضربا رتيبا عدة مرات ثم شهقة عالية من والدته.

جلس متحفزاً وقلبه يكاد يخرج من صدره .راقب مقبض الباب وهو يتحرك كأنه يُقتلع اقتلاعا .انفتح الباب بقوة وخرجت والدته وجهها ويديها والثوب الذي ترتديه كأنها سقطت على بركة دماء.

هب عدواً نحو الباب سقط عدة مرات متعثراً على الدرج قبل أن يبلغ الشارع الخالي الموحش .تابع عدوه دون هدى حتى تلاشت أنفاسه وسقط فاقداً وعيه.

عندما أفاق كان تحت ظل الحانوت مغطى بخرقة بالية . التقت عيناه بعيني معتوق المتوهجة .تلك النظرة لا يدري أهي أصابته بهلع أو ألفة وكأن هناك حوارا دار لحظتها ربط بينهما . رغم أنه لم يجرؤ على مخاطبته ولم يقترب منه إلا عندما يأتي له بالطعام المرة اليتيمة في اليوم تلفح أنفاسه وجهه ويجزم أنه يسمع دقات قلبه.

٥

شب معتوق فتى مفتولا مهمته تأمين عبود ومرافقته وحمايته . ذهب ذات يوم يعجل بالطعام لذهابهما في رحلة قنص وكان يستهويه ذلك كثيراً .لم يكن مرحبا به من نساء غرفة الطبخ الواسعة والكل يعلم أنه ابن الكناني .تجاهله الجميع مدعين انشغالهم بإعداد الطعام .لم يكن ذلك ليزعجه بل يستهويه ويحس بخشية الناس منه .تلفت يختار ليملي عليها أوامره.

استهوته إحداهن بجسدها الممشوق ومفاتنها التي لا تخفيها ملابس الطبخ بل الرباط على وسطها الذي تستدير معه أردافها أكثر قوة أثار شبقه .تقدم منها ولكنه تسمر في مكانه عندما استدارت .كانت تلك المرأة التي شهد مقتل زوجها في حضورها وهو صبي.

كان وجهها الجميل خاليا من أي تعبير ولم يغب عنها ارتباكه . تهذيبه في مخاطبتها انتبه له الكل. والتفت جمع النساء بين

مندهشات ومستنكرات .تعجبت المرأة منصاعة لطلبه وتقبلت أوامره بإيماءة من.

أحضر له الطعام رجل وكان يتمنى أن تكون هي .أكل من الطعام وحده وكان قد سبقه عبود وآخرون إلى ركب القنص. وهو يغادر أصيب بدوار وألم حارق في أحشائه فأفرغها قبل أن يسقط مغشياً عليه .عندما أفاق كان في هزال شديد وعلم أنه قد مر يومان منذ تسممه وكل نساء الطبخ في الحجز. ذهب وأمر بإطلاق سراحهن وتبرئتهن .رمقته المرأة بنظرة غير آسفة وشامتة على هزاله وهو يكاد لا يحمل جسده.

كثر تردد معتوق على غرفة الطبخ يرقبها خلسة .قاطعها يوماً وهي وحيدة في مستودع الطعام .أمسك يدها بقوة فشلت في التخلص منها وتوقفت عن مقاومته ووقفت قبالته في تحد. قال لها بثبات:

ثأرك ليس عندي ولكن قد تجدينه عندي.

نظرت إليه بتشكك وقبل أن تجمع أفكارها قال لها:

.الكناني قاتل زوجك عدوي وعدوك لست ابنه ولن أكون.

نظرت إليه غير مصدقة فقال لها:

.كنت مختبئاً ليلتها ورأيت كل شيء وأبغضه من يومها.

لم ترد عليه وقرأ التساؤل في عينيها .ترك يدها قائلاً قبل إن ينسحب:

.ملكيني نفسك.

ليلتها ظل معتوق متيقظاً ولم يطل انتظاره حتى تسللت المرأة إلى مخدعه واندست في فراشه .تركها تفعل ما تريد وفكره تائه كيف يتخلص من الكناني ويبر بوعده لها .دام الحال بينهما زمنا علمته فيه كيف تمتع المرأة الرجل ثم فجأة انقطعت عن فراشه .

لم يجن جنونه ولكن وصلته رسالتها كاملة .كان يقابلها كأنها لا تعرفه وكأنه لا يعرفها .في يوم سبقته إلى المستودع بإيحاء لحق بها دون تردد طرباً أن تكون الخطوة الأولى منها .دون مقدمات احتواها ولم تصده بل سكنت لحظات في أحضانه. انسحبت منه برفق وقبل أن تغادر التفتت إليه وبنظرة ثابتة قالت له:

.تحركت ثمرتك فى أحشائي وأنت صاحب القرار للاحتفاظ به.

خرجت وتركته ساكناً وقد تلبد كل شيء فيه.

بعد عدة أيام في طريقه إلى المستودع نظر إليها نظرة ذات معنى .عندما لحقت به قال لها وهو خارج:

.أنتظرك قبل الفجر في ساحة المنزل.

تسللت رقية إلى ساحة المنزل خلال الأشجار وعيناها تجول في المكان وقد تسارعت دقات قلبها من رهبة السكون .فجأة التفّت عليها يد بقبضة قوية والأخرى كممت فمها من الصراخ ولفتت وجهها برفق حتى رأت وجهه كاملاً .بعد استكانت تماماً

بعد عراك قصير أطلق معتوق قبضته عنها وسحبها وسط الأشجار .سبقها بحذر طالباً منها أن تتبعه بإشارة من يده .فتح النافذة ببطء واعتلاها وعندما صار بالداخل مد يده إليها وسحبها برفق إليه .بدراية سلك طريقه في الظلام ممسكا بيدها .فتح باب الغرفة المطل على الديوان الواسع فكادت تخرج منها شهقة وهي ترى الكناني ممددا حيث كان زوجها موثوقا .سحبها معتوق نحوه وتابعته بخطوات متعثرة وقد علا شخير محشرج من الكناني. نظرت إلى وجهه برعب وهي ترى خنجرا محشورا تحت ذقنه وعيناه زائغتان ترقبها .كادت أن تتراجع فاحتواها معتوق من الخلف وأمسك بيدها وأوصلها إلى نصل الخنجر وتركها بعد أن أمسكت به جيداً.

توقفت هنيهة تنظر في وجهه واستعادت منظر مقتل زوجها كاملاً .بصقت على وجهه وغرزت بغل الخنجر في حلقه ولم تتركه حتى همد تماماً .أخرجته وقطعت أصبعا من يده .لفته بخرقة كانت على الطاولة ودستها في طيات ملابسها وتبعت معتوق الذي رافقها حتى مدخل غرفتها.

عندما لاح الفجر استيقظ الناس على حريق هائل في الجزء الخاص بالكناني .بعد لهث وصياح تمكنوا من إخماد النار وعثروا على الكناني جثة متفحمة واحترقت كل أملاكه وأمواله .التقت عينا رقية بمعتوق فسبقها إلى مستوع الطعام الذي كان مغلقا بإحكام .أعطاها مفتاحا وحثها على فتح الباب. دلفا إلى المستودع فاسترعى انتباهها خزانة على الأرض لم تكن موجودة من قبل .فتحتها فإذا هي مكدسة بالمال والذهب والحلي .التفتت إليه مندهشة فقال لها:

. هذا محصولك الذي سرقه منك .ستحملينه إلى ديارك وسألحق بكما.

تبسمت له وقد فهمت مغزى كلامه من جعلها شخصين يخاطبهما .تلمست أحشاءها وطبعت على فمه قبلة طويلة.

٦

أصبح سعيد طليقا في الغرفة يعود إلى فراشه سريعاً عندما يحس بتحرك المزلاج في الباب .يظل وحيداً حتى تأتي له عطية بالطعام أو عودة عبود في المساء. انعدم الحديث بينه وبين عطية وعندما يهجد إلى فراشه ليلاً ينام بعد توجس واضطراب من زيارتها الليلية ولكنها لم تأت مرة أخرى منذ تلك الليلة .تحول توجسه إلى انتظار ثم تمن لا يدري هو رغبة فيها أو طريق إلى الخلاص .يوماً وهي تغادر الغرفة نادى باسمها بصعوبة .توقفت عند الباب دون أن تلتفت كأنها تتأكد أنه يناديها .عندما لم تسمع منه كادت أن تواصل سيرها فقال لها:

.ألن تزورينني ليلاً مرة أخرى؟

التفتت باندهاشة فكان أول مرة يرى عينيها على حقيقتهما عيني أنثى وليست ذئبة .تخيل له اعتلى فمها شبح ابتسامة وهي تشيح بوجهها قبل أن تغادر.

زارته ليلتها وتكررت زياراتها. كانت تقضى غرضها سريعاً وتتركه نارا مشتعلة .في مرة أمسك يدها يستبقيها فصدرت منها حركة استنكار عدوانية فتركها في الحال .تباطأت في قيامها ولكنها عادت .راقبت انفعالاته باهتمام لكن دون مجاوبته .تطور الحال وأصبحت تستلقي بجواره وتسمح له بمداعبة جسدها . تمنى أن يسمع صوتها وطال انتظاره لذلك بدون جدوى كانت يوماً مستلقية بجواره فزعت وهي تسمع خطوات عبود في الخارج .هبت واقفة وولجت الغرفة المجاورة .أحس عبود بمغادرتها ولم يبد اهتماما .جلس على المقعد الوثير ونظر إلى سعيد قليلاً وقال:

الكل يبحث عنك

صمت قليلاً وقال:

أتت والدتك وشقيقتك.

انهمرت دموع سعيد في صمت .ورمق عطية وهي تغادر إلى الخارج.

بعد أن غادرت تماماً قال عبود:

. من الأفضل أن تكسب جانبها .تأكدت ليس خلفك أحد ولكن ذلك لن يرضيها

صمت سعيد وذلك الحديث أراحه كثيراً وأزال توجسه منه . يعمل جاهداً أن يكسب جانبها ولكن صمتها يخيفه .بعد توجس حاول جذب عبود للحديث فقال:

.تعاملني الآن أفضل ولكن صمتها يخيفني

رد عبود دون أن يرفع رأسه:

. إنها خرساء.

فزع سعيد وهذا ما لم يتوقعه. إنها هادئة تماماً توضح نفسها بإشارات خفيفة أو نظرات إيحائية بالقبول أو الرفض بدون أي ضوضاء .قطع عبود تأملاته كأنه لمس عدم اقتناعه قائلاً:

.رأيتها هكذا وهي فتية.

صمت عبود وهو يتذكرها تبكي وتصرخ وهو ينتزعها من فوق جثمان أمها عم صمت بينهما ولم يكن لدى سعيد رغبة في مواصلة الحديث وقد انشغل باله في والدته وشقيقته .كأن عبود كان يقرأ أفكاره قال له وهو يغادر الغرفة:

.والدتك وشقيقتك تقيمان في غرفتك الآن.

فغر سعيد فاه ولم يعقب عليه واجتاحه ارتياح وقد تيقن والدته قد غادرت السجن.

لم يدر بذهنه يوما السؤال كيف عرفت والدته عنوانه .تسمر أمامها على باب غرفته وقد عرفها فور رؤيتها رغم سنين الفراق .أفسح لها بالدخول وعيناه معلقتان بالطفلة التي

تتبعها ممسكة بيدها .دار بينهما حوار صامت دون أن ينظرا لبعضهما البعض .قطعه كأنه يعتذر:

.كنت طفلاً وقد تملكني الرعب ردت بهدوء:

.سعيدة بهروبك والا قضيت حياتك ترافقني في السجن.

لم يعقب كأن حديثها كان أبلغ من وجودها بأنها كسبت تلك المعركة وكان يظن تلك الدماء كانت دماءها .بعد صمت سألها:

.متى خرجت من السجن؟

ردت بعد صمت:

.لا زلت في السجن.

رفع عينيه مستفسراً فردت مقتضبة:

أستطيع الخروج الآن ولكنني يجب أن أقضي ليلتي هناك.

لاحظت نظرته المتسائلة للطفلة واصلت حديثها:

إنها شقيقتك

لم يعقب على حديثها وعمر الطفلة ينبئه أنها ليست ابنتها وقد تقدم بها العمر .فطنت لنظرته فأضافت هامسة:

.توفيت والدتها في السجن.

هبت واقفة متأهبة للانصراف وقالت مودعة:

.سأعود لزيارتك متى سنحت لي الفرصة.

لم يرافقها إلى الباب وجلس مطرقاً وقد لمست نظرة الطفلة الأخيرة له قلبه كأنها تود البقاء.

٧

ظن الجميع أن الكنانى مات في الحريق .لم يكن هناك من يحزن عليه أو يبحث في مقتله .كثيرون تنفسوا الصعداء وكثيرون نالوا حريتهم وبعضهم زادت أطماعهم .اتجهت كل الأنظار إلى ابنه الغائب ولا يعرف أحد أين هو الآن .كما هو دائماً طائر الشؤم يفرد جناحيه بالأخبار الرديئة وصل نصار والد عبود في نفس اليوم وقد بلغه خبر موت والده .كانت زوجته في انتظاره على غير عادتها ولازمته لصيقة به وما كانت تحفل يوماً بوجوده أو غيابه ولكن لم يشفع لها ذلك وكان الكنانى هو الذي فرضها عليه .قبل بزوغ شمس اليوم التالي غادرت في موكب ذليل دون أن تودع ابنها .رقب عبود الركب يبتعد من نافذة غرفته دون أي إحساس بالفراق ولم يرها منذ ذلك اليوم.

في صبيحة اليوم التالي اجتمع القوم في ساحة المنزل متسكعين في انتظار خروج نصار عليهم .عندما انتصفت الشمس في

السماء وضاقت بالأرض تفرق الجمع فرادى وجماعات، جلس معتوق ومعه عبود في فناء غير بعيد من غرفة نصار .مرت أمامهما إحدى النساء تحمل الطعام إليه وغابت عنده طويلاً . خرجت تحمل أواني الطعام الفارغة لم تعتن بإعادة ترتيب هندامها وشعرها ويعلو وجهها استياء وشعور بالتقزز بالغين كأنها خارجة من الجحيم .رمقت معتوق بنظرة خاطفة ودون أن تتوقف خاطبته

.إنه يطلبك

ثم بنظرة ملؤها الاحتقار رمقت عبود وأضافت مخاطبة معتوق:

.أنت وحدك.

تبسم عبود كأنه يقول لها لست بحاجة إليه .نظر إليه معتوق مبتسماً وقام متثاقلاً يرمق المرأة بإشفاق ملؤه الاحتقار.

دلف معتوق إلى الغرفة ونظر إلى نصار مستلقياً على الفراش بجسده الضخم المترهل .أجلس نفسه بدون إذن منه وصار يتجول بعينيه في الغرفة كأنه لا يعنيه ما سيقوله .تكلم نصار دون أن ينظر إلى معتوق:

. أعلى الخزانة يوجد سجل به كل أملاك والدي .أريدك أن تبيعها كلها في أسرع وقت بما فيها هذا المنزل.

ظل معتوق ساكناً تعلو وجهه بسمة ساخرة .أضاف نصار:

.لا أريد أحدا من العاملين قم بصرفهم جميعاً.

قام معتوق متمهلاً وأخذ السجل من على الخزانة وهو في طريقه إلى الباب أضاف نصار:

.أخبر عبود أن يلحق بوالدته لا أريد أن أراه.

خرج معتوق تعلو وجهه نفس الابتسامة الصفراء.

بعد أن فرغ معتوق من بيع الأملاك استدعى العاملين .جلس على طاولة عريضة كان يجلس عليها الكنانى عندما يقابل عماله ويدفع لهم استحقاقاتهم .صار العاملون يدلفون إليه في صمت ويخرجون في صمت ولكن يعلو وجوههم ارتياح ليس كما كانوا يفارقون الكنانى. دلفت إليه سيدة بنيتها هالكة ووجهها شاحب .كانت تنظر إليه في انكسار وفى أعماقها تريد أن تضمه وتقول له أنها والدته ولكنها تهيب ذلك حتى بعد موت الكنانى .نظر إليها ببرود وقال لها:

أعلم من أنت. أين ابناك؟

دلف شابان مفتولان فور سماع سؤاله كأنهما في انتظار. تجاهلهما وسأل المرأة:

.هل تعرفين أين ستذهبين؟

ردت بوهن وقد تقاطرت عيناها:

.نعم أعلم.

بدون إعطائها فرصة في الاسترسال هب واقفاً وذهب إلى خزانة أخرى ليست التي بجانبه .أخرج منها جرابا مليئا ووضعه أمامها قائلاً:

. ستغادرين وحدك وسيلحق بك ابناك لاحقاً بإشارة من يده سمح لثلاثتهم بالمغادرة

عندما أنصرف الجميع نادى معتوق على شقيقيه وأمرهما بحمل خزانة ضخمة وسار أمامهما إلى غرفة نصار .فتح الباب على مصراعيه وأمرهما بإدخال الخزانة .حالما وضعاها أمام نصار بإشارة من يده أمرهما بالانتظار في الخارج .فتح الخزانة أمام نصار وقال له:

. سوف أحتفظ بهذا المنزل الآن وستناله حينما تريد أكون قد دبرت أمري.

أعاد نصار نظرة أخرى داخل الخزانة وأومأ بالموافقة .أضاف معتوق:

.سوف أجهز ركبك وستغادر غداً.

دون انتظار رد منه نادى على شقيقيه وأمرهما بنقل الخزانة . تبعاه حتى غرفته وأمرهما بوضع الخزانة بجانب أخرى تشبهها . فتح الأخرى وأراهما رزما من المال داخلها .أعاد إلاقها وقال لهما:

.غداً تغادران مع نصار مع هذه الخزانة واسلكا طريق الوادي خلف حارة الغجر .يوجد طريق فرعي غير مطروق بجانبه حفرة تم إعدادها.

نظرا إلى بعضهما كأنهما يتأكدان مما سمعاه .لم يهتم معتوق وأكمل حديثه بهدوء ووضوح:

.تدفنانه هناك وتخفيان الحفرة بعناية .الخزانة والمركبة لكما . تلحقان بوالدتكما ولا أريد أن أراكما مرة أخرى.

٨

فوجئت عطية بغياب سعيد من غرفته .اقتحمت غرفة عبود لم يكن موجودا أيضاً .هرولت خارج المنزل وصارت تجرى في كل اتجاه وسط أعشاب الخريف الطويلة المتيبسة .اعتلت حافة البئر العالية ولم تر أحدا على مد البصر في الفضاء المكشوف .لا يوجد سوى كومة الخردة بقايا الغجر مكان للاختباء. أسرعت إليها وتناولت قضيبا صدئا واخترقت أكوام الحديد ولم تعثر عليه كأنه تبخر.

عادت إلى المنزل غاضبة مقسمة أن تقتل عبود عندما تراه. دلفت إلى المنزل وتهالكت على مقعد في فنائه .انتبهت فجأة كل حواسها وقد تخيل لها سماع صوت قادم من الغرفة .فتحت الباب بحذر وتسمرت في مكانها وهي ترى سعيد مضطجع على الفراش .فزع هو لفزعها وانتصب جالساً .سألته بحزم: .أين كنت؟

هب واقفاً وتفتحت حواسه واتسعت عيناه قائلاً:

.أنت لست خرساء!

شعر بالخطر في نظراتها فعاد لأصل السؤال:

.ذهبت لقضاء حاجتي.

لم يطمئن لصمتها والقضيب الصدئ في قبضتها فاسترسل محاولاً إقناعها:

.لم أجد عبود في غرفته وكان الباب ليس موصداً.

صمت لصمتها وانزاح غمه عندما غادرت واستلقى يتلقط أنفاسه والمزلاج يسقط على الباب .بعد فترة جلس بقلق من صوت تحرير الباب .دخلت عطية بدون القضيب وظلت واقفة ترمقه مطولاً .تقدمت منه بخطوات هادئة وجلست بجانبه . عم بينهما صمت قطعته قائلة بحزم غير غاضب:

.لا تخبر عبود.

فهم مقصدها فهي لا تريد عبود أن يعرف أنها ليست خرساء فأومأ لها بوعد .استلقت على ظهرها وهي جالسة كأنها تدعوه . نظر إليها في عتاب قائلاً:

.هل كنت ستقتلينني؟

تكدر وجهها وهمت بالقيام ولكنه استبقاها بقبلة طويلة على فمها.

أصبح سعيد طليقاً داخل المنزل لا تغيب عنه رقابة عطية حتى وهي تعلو وجهها الابتسامة .كان عندما يجلس خارجاً أمام الباب يجعله مواربا بحيث تراه .جلست بجواره يوماً وبعد صمت قالت كأنها حزمت أمرها:

.لا تأمن لعبود جانباً.

نظر لها بدهشة وكأنه ينتظر فرصة مثل هذه سألها محاولاً تطوير الحديث:

.أنت لم تقتلين عم معتوق أليس كذلك؟

صمتت قليلاً ثم قالت بهدوء:

.قتلته أنا.

اقشعر بدنه ولم يصدق عقله .فشل في ترتيب سؤال آخر ولكنه تمسك بالحديث في تحريفات غير منظمة .لم تحفل بحديثة وأضافت:

.قتلته قبل أن يقتلني.

صمت سعيد مصغياً وقد تأكد هناك ما ستضيفه قد يرتب أفكاره المشتتة .طال صمتها تتأمل ما ستقوله لتبرئ جرمها أمامه وقد تملك من قلبها وقالت:

.تأكدت من خطأ تخوفي منه عندما مثّل عبود به .رأيته يمزق أعضائه بغل بائن.

توقفت عن الحديث وقد لاح في البعيد عبود يترنح بجسده الممتلئ .تبعها سعيد إلى الداخل صوب غرفته وتمدد على الفراش في انتظار عبود.

٩

أتت إحدى عشيقات نصار تبحث عنه .أكد لها عبود مغادرته قبل يومين .لم يشاركهما معتوق الحديث طوال الوقت ولكنه تدخل عندما سمح لها عبود بالقاء في المنزل .رفض بصرامة وطردها باحتقار .لم يغب عن عبود غل معتوق نحو والده يوماً ولم يبال بذلك فلا علاقة له بأبيه ومعتوق أقرب الناس إليه ولكن لم يرتح لثورة معتوق مع هنية.

لم يكن عبود عدائياً مثل معتوق ولم يكن مسالماً في داخله . تمتع بعدوانية رفيقه وكثيراً ما رتب استثارته إزاء آخرين .لمس هناك سرا خلف عدوانية معتوق نحو عشيقة والده التي كانت محظيته دون الأخريات .معتوق لا يهاب أحدا ولكنه متعقل في مصالحه ونصار الآن خليفة الكناني الأوحد .شغله أمر غياب والده وصار يتنقل في المدن بحثاً عنه دون ضوضاء.

في تجواله تقابل مصادفة مع رقية وكانت هي التي تعرفت عليه . لم يكن يعلم بعلاقتها مع معتوق ولم يكن يربط بينها وبين تلك

المرأة التي رأى جده يقتل زوجها .دعته إلى سكنها وكانت على أحسن حال من رغد العيش .استشف ودها معه من ودها مع معتوق وتعاملت معه كأقرب الأقربين إليه .لم تفش له سر مقتل الكناني ولكن كشفت له هويتها وعلاقتها مع معتوق .لم تخبره بتفصيل اعتقاد منها أنه على دراية بكل التفاصيل.

مكث معها يومين كسب ودها واحترامها وصور لها نفسه ضحية كل الأحداث .عندما علم أنها تحمل جنينا من معتوق تملكه الغبن .لحظت ذلك وألحت عليه أن يصدقها الحديث . صمت برهة يرتب ما سيقوله فبان الخوف في عينيها .أمسك يدها وقال:

. ما كنت أريد أن أقول شيئاَ لولا الجنين الذي تحملينه.

صمت برهة وقال كأنه يعترف:

. أنا هارب من معتوق .قتل أبي ويريد أن يقتلني ليصفو كل شيء له.

تنهد بعمق وواصل حديثه لكسب ثقتها:

.لقد أصبح كناني آخر.

صمت يرقبها وقد كلماته وتأكد من صيدها تماماً .قال وهو يربت على كتفها:

. لدي صديقة أمينة يمكنك الاختباء لديها حتى ينتهي كابوس معتوق.

رافقت رقية عبود إلى مدينة أخرى وقد ألجم الخوف عقلها . تركها عبود في بهو الدار واختلى بهنية خليلة والده التي لم يقطع وصله معها منذ أن طردها معتوق .نقل لها ظنونه ووعدها أن تكون شريكة له في إرث والده بعد القضاء على سلطان معتوق .هنية صارت تكن الغل لمعتوق ليس فقط لطرده الذليل لها ولكن أيضاً غياب عشيقها جعلها تعاود بيع الهوى وهوانه بعد أن اسقرت بما كان يوفره لها نصار من رغد العيش .شرح عبود لها خطته ودس لها جرابا ممتلئا بالنقود

وحذرها مراراً من تجارة البغاء ويجب ألا تشتم رقية شيئا .
غادرهما عائداً إلى معتوق بوعد زيارتهما.

كان معتوق قد أخفى كل الأحداث عن عبود لكن اقتسم معه الغنيمة مناصفة كما أنها حصته التي تركها له والده قبل رحيله .بعد أن استقرت أحواله غادر ليعود برقية ولكنها اختفت دون أثر .بحث عنها في كل النواحي وتسقط أخبارها دون جدوى .تأكد من غدرها به وعاد مكفهراً يكن لها حقدا لحرمانها له من طفله الذي تحمله .كان عبود يرقبه بحذر متصنعا عدم إلمامه بأموره وعدم انتباهه لحاله المتكدر.

١٠

سعيد لم يخض مع عطية مرة أخرى في أمر عبود رغم انشغاله طيلة الوقت من تحذيرها .تحين اختلاءه بعبود في غياب عطية واستوثق من مراوغته رغم الود الذي بينهما في الحديث .كان حديث عبود غالبه بعيدا عن عطية ولكنه ينصب في التشكك حولها. احتار سعيد في الألغاز التي تدور حوله ونسي تماماً الخطر المحدق به وصار جزءا من الأحداث.

فكر سعيد في كسب تام لعطية وقد تأكد تماماً من ميلها إليه. لم يكن يستسيغ وقع اسمها فكان يناديها عطايا .في يوم وهما يتناولان الطعام تملكتها ذكرى وهو يناديها قالت كأنها تود تفريغ نفسها:

.خالتي هنية كانت تناديني عطيات.

انتبه لها واجتاحته رغبة لمعرفة المزيد فقال لها:

.هي شقيقة والدتك.

بعد صمت كأنها سقطت في بئر ذكريات سحيق قالت:

.لا أعتقد أنها شقيقة أمى

كانا قد أكملا طعامهما فهب سعيد وذهب بالأواني الفارغة وعاد سريعاً وأخذ يدها يدعوها للنهوض .طاوعته حتى استلقت على السرير وجلس هو قبالتها على المقعد الوثير وقال لها:

.احكى!

ابتسمت وكانت قد تفرقت ذكرياتها فسألته عله يساعدها:

.ماذا تريد أن تعرف؟

قال لها:

.كل شيء عنك فلنبدأ بوالدتك وخالتك.

أطرقت كأنها تحفر في ذاكرتها فطالعها وجه أمها الصارم. قالت:
.ليس هناك الكثير عن خالتي هنية وقد فارقتها وأنا طفلة .كنت

أحبها وأنام في أحضانها ولم أتعرف على أمي جيداً الا بعد هروبنا من منزل خالتي.

انتبه سعيد بكل جوارحه وبادرها:

.إلى أين هربتما؟

ردت وهي غائبة في ذكرى تؤلمها:

.أمي كانت قاسية وليست مثل خالتي هنية.

كأنها انتبهت لسؤاله ردت بحيرة كأن تلك الطفلة تقمصها:

.لا أدري.

بعد صمت كأنها تلتقط أنفاسها تابعت:

.هربنا إلى أماكن كثيرة وأناس كلهم وحوش.

وضع يده على فمها وضمها إليه وقد أحس ما اعتراها من ألم . همس في أذنها:

.كلي رغبة أن أعرف كل شيء عنك ولكن ليس الآن.

دفنت وجهها في صدره وسالت دموعها سخينة بعد جفاف دام سنين .تشبثت به تمنعه أن يرى ضعفها .طافت بها لحظات اغتصابها وهي لم تغادر طفولتها بعد .تشبثت به وهي تحس بأحضان أمها وتلك كانت اللحظات الوحيدة التي احتوتها فيها بانتماء كان مفقودا بينهما.

كان ذلك الوحش تمكن منها بالكاد وهي تصرخ من تمزق أحشائها لم تحس بالمدية التي نفذت من عنق الرجل إلى عنقها تاركة ندبة تذكرها بذلك اليوم كلما تراها على سطح ماء البئر.

قذفت أمها بحسد الرجل بعنف تحررها من تحته .تحققت بفزع أثر المدية على عنقها واحتوتها بين ذراعيها في نواح بفجيعة لم ترها من قبل في صلابتها.

لا تذكر ذلك الرجل وكيف التقته ولكنها تذكر رحيلهما في ذات اليوم وهي متشبثة بعنق والدتها وسط مركبة مكدسة بالبشر والأنظار مثبتة عليهما لا تدري هي نظرات شفقة أو انزعاج.

محطتها الأخيرة كانت داخل غرفة تفوح بعطن الأجساد .منذ تلك الواقعة لم تتركها أمها بعيدة من أعينها .تسجنها داخل خزانة عتيقة عندما تستقبل زوار الليل .من مكانها تسمع

أصوات الركل وشخير الرجال ولا تسمع صوتا لأمها .عندما تحررها من حبسها تصدها عن أحضانها وتشيح وجهها عنها.

تلك الليلة كانت الضوضاء تختلف عن كل مرة. سمعت أنفاس والدتها بوضوح وسمعت صوت ارتطام عقبه صمت تام .عندما طال الوقت ولم تحررها والدتها خرجت بحذر وتجمدت أمام والدتها على الأرض سابحة في دمائها. انقضت عليها تناديها بفجيعة .لم تنتبه للرجل الذي دلف إلى الغرفة وقاومت بشراسة يديه وهو ينتزعها من فوق جسد أمها.

ابتعدت فجأة من أحضان سعيد وجسدها يرتجف. حاول الإمساك بها ولكنها ابتعدت خطوة إلى الوراء تمنعه الاقتراب منها بيدها وعيناها زائغتان، وفجأة قالت بصوت يكاد لا يخرج من فمها:

.أنه إنه هو

سألها سعيد باهتمام بالغ:

.من هو؟

قالت كأنها لم تسمعه:

.ماذا كان يفعل هناك؟

سألها مرة أخرى:

.من هو؟

قالت كأنها تبحث في البعيد:

.عبود كان هناك يوم مقتل أمي

اقترب منها سعيد واحتواها عنوة رغم صدها له وضمها بقوة حتى استكانت بين يديه .سحبها إلى المخدع وأجبرها على الاستلقاء ودثرها جيداً .جلس بجانبها وأمسك يدها ودس أصابع يده الأخرى في شعرها الكثيف وصار يدلك رأسها برتابة كما كانت تفعل أمه معه. عندما استكانت انسحب ببطء وجلس على المقعد الوثير .كاد قلبه يقفز من ضلوعه وهو يرى عبود ينسحب إلى غرفته .مكث في الظلام في ترقب حتى تسلل النوم إلى أجفانه.

١١

رقية بادئ الأمر لم يطمئن قلبها إلى هنية. عاشتا زمنا طويلا منفصلتين لا يجمعهما إلا حضور عبود على فترات متباعدة. يختلي بهما كل على حدة ولكل واحدة منهما روايتها ولكن يعلم كلتيهما عودته إلى معتوق.

هنية كان يؤرقها الجنين في أحشاء رقية وتحس بضخامة المؤامرة التي سيكون أحد ضحاياها .عندما حانت أيام قدوم عطية إلى الدنيا تحركت الأنثى داخلها واحتوت رقية تماماً. عطية كانت فرحتهما التي أذابت الجليد بينهما .لم تعترف هنية لرقية بخطة عبود في القضاء على معتوق والاستيلاء على الثروة، لو قالت لاعترفت بمؤامرتها معه عليها، لكنها اعترفت لها بعدم ثقتها به .رقية كانت أكثر ذكاءً تسمع ولا تصرح بمكنونها ولكن صادف ذلك ارتياح في قلبها نحو هنية وقد فقدت الثقة في عبود منذ زمن بعيد فقط تحاوره خوفاً من معتوق وقد تورطت في خيانته.

لم يغب عن عبود تآلف هنية مع رقية وتغافل عن برود مقابلتها له وأضمر التخلص منها .بث الرعب في قلبها بأن معتوق يبحث عنها وقد ورد إليه أنها خلف اختفاء رقية .لم تصدق هنية روايته واتهمته مباشرة بأنه هو من أخبر معتوق عنها .أقسم لها بأنه لو فعل ذلك كأنه يلف الحبل حول عنقه وقد أصبح معتوق مارداً لا حدود لطغيانه .أقنعها بأنه سيفعل كل شيء للوصول إلى رقية والانتقام منها.

توجست هنية من عبود ومن رقية وأصبح هاجسها وصول معتوق إليها .في ليلة بث فيها عبود كل سبله في إقلاق هنية ظلت ساهرة مشوشة الأفكار وكاد قلبها يخرج من صدرها وباب غرفتها يفتح بصرير خافت. جحظت عيناها مثبتة على الباب انخفض بصرها وهدأت روحها وهي ترى عطية تتسلل من الباب .هبت إليها وأخذتها في إحضانها وبللتها بدموع سخينة وظلت تضمها حتى استكانت في نوم عميق.

استفاقت رقية صباحاً ووجدت عطية نائمة بجانبها على غير عادتها .لم يطمئن قلبها فتسللت إلى مخدع هنية وجدته خالياً عير مرتب .تسلل القلق إليها ولكنها تعلقت بأمل وبحثت عنها في أرجاء المنزل ونظرت خلال النافذة تبحث عنها في الخارج. تملكها خوف هائل وهرولت متعثرة إلى خزانتها .وقفت وقد سقطت حليتها ونصف مالها اختفى .دون ترتيب أخذت باقي المال وحقيبة صغيرة ملأتها بما طالته يدها من أشياء طفلتها. أخذتها على كتفها وهرولت لا تلوي على شيء .عندما وجدت نفسها بعيدة كثيراً زال عنها بعض الخطر. انزلت عطية عن كتفها وقادتها من يدها وهي تحاول ترتيب أفكارها .استقلا أول مركبة مغادرة وصارتا في ترحال متواصل حتى استقرتا في مدينة تطل على البحر .شح المال لديها فكان عليها الحصول على عمل .استقرت في كابينة خشبية قديمة والتحقت ببعض النسوة يعملن في مطعم عتيق يطل على البحر يوفر الطعام لعمال الميناء القديم.

حصولها على العمل لم يكن سهلاً .ساعدها رجل يملك تلك الكابينة ساومها على نفسها لكي يأويها .صارت تعمل جل يومها تنام ليلاً منهكة على مخدعه يمارس فيها عهره مخموراً .تتسلل منه ليلاً إلى طفلتها التي ترى كل شيء بعينيها في صمت تام.

هنية حظها لم يكن أوفر .غادرها عبود ذلك اليوم دون إعطائها مال مالا مثل كل المرات .قررت الهرب وقد تورطت في إيواء رقية ولن يكون حظها أقل منها في انتقام معتوق .سطت على مال رقية ولكنها أرجعت نصفه وقلبها يتقطع على عطية . ذهبت إلى مدينة مجاورة قاصدة صديقة قديمة. تسمرت امام الباب وجمدت يدها وهي تهم بطرقه لصوت ارتطام وصرخة مدوية في الداخل. قبل أن تفوق لنفسها فُتح الباب وأطل وجه رجل عابس امسك بها وقذف بها إلى الداخل على الأرض وانهال عليها صفعاً وركلاً .لم تستطع أخذ أنفاسها لتصرخ وهو ينهال عليها ضرباً ظنته لن ينتهي .وهي تغادر في غيبوبة رأته جاثيا على الأرض ينبش في حقيبتها.

أفاقت هنية ممددةً على الأرض وكل جزء من جسدها يصرخ بالألم عدا فاها الذي تمكنت منه في رحلة فرد جسدها .كاد قلبها يقتلع من صدرها وعينها تقع على أقدام رجل يجلس أماها .كان فزعها أكبر وهي ترفع بصرها وتصطدم عيناها بعيني عبود ووجه تعلوه بسمة شامتة .سألها بهدوء أخافها كأنها تراه للمرة الأولى في حياتها:

.أين رقية لم تأت معك؟

قبل أن تجمّع أفكارها دلف ذلك الوحش الذى اعتدى عليها إلى الغرفة. إرتمت على قدمي عبود تصيح بانكسار:

.تركتها بالمنزل .هربت منها وسرقت مالها .أقسم هي لا تعرف أني هنا.

هب عبود متأكداً من صدق روايتها .تخطاها مخلصاً قدميه من قبضتها مغادراً الغرفة .تقدم منها الرجل الآخر وركلها بقسوة على أحشائها وغادر خلف عبود.

١٢

أفاقت عطية منزعجة ويداها ورجلاها موثقتان بذلك الحبل الذي كانت تكبل به سعيد .قبل أن تفيق من فزعها دلف سعيد يحمل الطعام وتعلوه ابتسامة مرحة .وضع الطعام على الطاولة أمامها وقفل عائداً لجلب أغراض أخرى .جلس قبالتها يهم بتناول الطعام ولكنه توقف ونظر إليها مدعياً السذاجة قائلاً:

.لن تستطيعين تناول الطعام هكذا.

عاد إلى غرفة الطبخ وأحضر سكينة .وجثم بهدوء على الأرض وقطع وثاق قدميها .وبنفس التريث اعتدل في جلسته وفك وثاق يديها .وضع المدية امامها على الطاولة وعاد إلى مقعده أمام الطاولة وشرع في تناول طعامه دون أن ينظر إليها:

كانت تبحلق فيه طوال الوقت بمزيج من الغضب والحيرة .بعد صمت استطاعت تجميع نفسها وكبح عضبها قالت بصوت مخنوق:

.لماذا فعلت ذلك؟

نظر لها بصمت وأطعمها بيده في فمها. لم ترفض ولكنها لم تمضغ. تنظر إليه في ريبة تنتظر جوابه .عاد لتناول طعامه وقال بهدوء:

.أنا أحبك ولن أغادرك حتى إذا سنحت لي الفرصة.

كلماته أصابت رعشة داخلها غريبة عليها وأحست بدموع ساخنة تمتلئ بها عيناها .واصل حديثه وقد نالت منه عيناها الممتلئة بالدموع:

. طفولتي لم تقل عنفا من طفولتك .تذكرين عندما أخبرني عبود عن عودة أمي؟

تابعته باهتمام ترقب دمعة تسيل على خده .قال كأنه يغرق في بحر من الذكريات:

.إنها ليست أمي والبنت التي معها ليست شقيقتي.

تابع كأنه يناجي أمه:

. لا أعرف اسمها ولم أسألها يوماً ولكن أعلم لديها قلب يحتويني ويحتوي شقيقتي وكل ظلم الدنيا.

قامت إليه عطية واحتوته بذراعيها دافنة وجهه في صدرها كأنها تحاول إدخاله في مسام جسدها. هب مبتسماً ودموعة لا تزال تتقاطر وقال لها:

. اليوم لا دموع لا تحكي لي ولن أحكي لك سنعيش يوماً مغايراً.

ذهب صوب الباب وفتحه قبل أن يخطو خارجاً أقفله ونظر إليها وقد ماتت الابتسامة على وجهه .سار نحو الغرفة وقال لها مكفهراً:

. عبود قادم دعيه يعتقد أننا في جفوة.

دلف إلى الغرفة وأغلقها خلفه .تمددت هي في أريكة في فناء الدار وحدقت في السقف تتأمل الذي حدث ولا تفارقها مفردة أحبك التي قالها لها .أحست أنها امرأه أخرى ضاع ماضيها ولا

تعبأ بما هو قادم .أغلقت عينيها مع صوت المزلاج على الباب ينبئ بوصول عبود .لم يكن بإمكانها ادعاء حال غير الحال الذي تملكها فأمعنت في الاسترخاء تترجى النوم. دلف عبود غرفة سعيد واستلقى على المقعد الضخم يراقب سعيد الذي ادعى أفاقته استيقاظه بدخوله إلى الغرفة .لم يكن يحتاج أن يتقمص حالا مغايرا فقد كان بالفعل مكفهرا من حضور عبود غير المتوقع .سأله كأنه يسبقه في السؤال:

.ليس موعد مقدمك هل من خطب؟

تجاهل عبود سؤاله وعيناه تقدحان ريبة وقال له:

.ما خطبك؟

تجاهل سعيد سؤاله ورد:

.لا شيء!

أردف كأنه يريد تغيير مجرى الحديث:

.هل رأيت والدتي اليوم؟

لم يرد عبود كأنه ينتظر جوابا على سؤاله .وضع سعيد وجهه بين يديه عله يجد ما يقوله .بعد صمت حزم أمره وقال:

.لا أستطيع ان أفهمها فهي غريبة الأطوار

أردف:

. لم تغادر المنزل منذ عدة أيام. اصدقني هل تضمر لي شيئاً ابتسم عبود وقال له:

.لا تحمل هماً سينتهي كل شيء قريباً.

تملك القلق سعيد واحتار كيف يمسك دفة الحديث ألا ينقطع وقد تململ عبود في جلسته مما ينبئ عزمه على الرحيل. لحظ ارتباك الفتى فاتسعت ابتسامته وهب مغادراً وقال له:

.كن مطمئناً ستكون بخير.

لبث سعيد مكانه حتى سمع سقوط مزلاج الباب الخارجي .خرج مسرعاً وتوارى خلف النافذة يطمئن على ابتعاد عبود .التفت إلى عطية وجدها ترقبه بترقب .هرول إليها وأعاد على مسامعها ما دار بينه وبين عبود .هبت باهتمام وقالت له:

.سأتبعه.

هبت إلى غرفتها مسرعة وعادت ترتدي ملابس سوداء .قال لها: .سأذهب معك

ردت حازمة:

.لا أنت ستعيق حركتي.

كأنها فطنت لفظاظتها أردفت:

.صدقني من الأفضل أن أكون وحدي انتظرني هنا.

ابتلعها الظلام والشمس كادت أن تغرب .التصق سعيد بالنافذة تتقاذف به الأفكار بين الهروب أو الانتظار وكانت تلك

المرة الأولى التي كان فيها وحده حراً طليقاً .ترك المنزل وتوغل بين بقايا حطام الغجر واختبأ وعيناه معلقتان بالطريق الوحيد المطروق القادم من المدينة .بعد ساعات كان قد قرر وأحجم فيها على الهروب مرات عديدة .تراءى له خيال مسرع في الظلام فأمعن في الاختباء .عندما تخطاه الشبح تيقن أنها عطية .همس لها توقفت فزعة .عندما تأكدت منه حثته أن يتبعها على عجالة دون توبيخ .دلفا إلى المنزل سبقته إلى الغرفة طالبة منه أن يتبعها .تناولت الحبل ودعته إلى المخدع .وقف مشدوهاً ينظر إليها .قالت له برجاء:

. ثق بي إنه يريدني أنا أطاعها فأوثقته جيداً وخرجت مسرعة تاركة المنزل واختبأت خلف البئر.

سمع سعيد مزلاج الباب وخطوات عدة أشخاص .بعد وقت ليس بالقصير دلف عبود إلى الغرفة فاقداً ثباته ولكنه استعاد جأشه عندما وجده موثوقاً على السرير .سأله:

. أين هي؟

قال له:

.لا أدرى لقد خرجت خلفك.

hارتبك عبود وغادر الغرفة مسرعاً دون أن يحل وثاقه .سمع همهمات في الخارج وغادر الجميع.

لم يحس بدخول عطية المنزل وانتفض وباب الغرفة يفتح بحذر شديد .حلت وثاقه بتعجل وسبقته هروباً تحثه لكي يلحق بها .أمسكت بيده وسط الظلام وسارا زمنا طويلا قبل أن تتوقف وتأخذه طويلاً في حضنها وقالت له:

.لقد أنقذت حياتي لن أدع أي مكروه يطالك ما دمت حية.

١٣

هنية لم تكن مشكلة حقيقية لعبود .مشكلته الحقيقية عثور معتوق على رقية ويكتشف مخططه .كان يعرف ملاذ هنية لدى صديقتها وتكهن بهروبهما هناك وهو يراقب تمدد حبل الوصل بينهما. ترك عينا على صديقة هنية ولكن ذلك الوحش لم يصبر فتوغل على المرأة داخل منزلها. لم يرق الأمر لعبود ولكنه صمت على مضض ولكن حذّره من إيذاء الطفل.

خلا المنزل على هنية والطفل ورغم انهيارها وآلام كدماتها أسرتها نظرات الطفل المتوسلة وقاسمتها الوجع .ضمته إلى صدرها في صمت وبللت دموعها أحزانه .بعد أن استكانت روحه في أحضانها أمسك يدها وسحبها برجاء إلى غرفة صغيرة . هالها ما رأت وصديقتها مسجاة غارقة في دمائها تتوسل بعينيها تطلب العون .ارتدت لهنية لها الحياة كأن ضعف صديقتها عافها من أوجاعها .سحبتها على الأرض إلى البهو حيث الهواء أرحب .سقتها بعض الماء وشرعت في تنظيف وجهها بقطعة

قماش مبللة .قبضت المرأة على يدها بيد واهنة ونظرت لابنها توصيها به وأسلمت روحها كأنها كانت تؤجلها لتلك اللحظة. انكبت عليها هنية باكية بحرقة .انتبهت على وقع حركة في الخارج .اختطفت الطفل وهرولت إلى غرفة أخرى .مر الزمن طويلاً وهما يرقبان الباب .فتح عبود الباب ونظر إليهما ودون أي حديث خرج مقفلاً الباب خلفه .بعد فترة عم الهدوء المنزل ولكن لم تجرؤ هنية على مغادرة الغرفة .غفا الطفل على صدرها بإجهاد كأنه لم يذق طعم النوم في سابق الأيام. غفت معه بعد ترقب ساعات طوال .فجأة استفاقت فزعة على ارتطام في البهو وفرقعات تحطيم أواني .فُتح الباب عن مصراعيه ودلف ذلك الوحش مخمورا تقدح عيناه بالشر. انتزع منها الطفل وحمله كخرقة بالية ورمى به في البهو .تخلص من ملابسه وجثم فوقها .أمسكها ذكورته المتهالكة وصار يصفعها كلما تباطأت .فشله التام جعل صفعاته تتصاعد حتى همد تماماً فوقها بشخير مثل المذبوح .حاولت أن تسحب نفسها منه فأفاق كالمذعور وشرع في صفعها حتى استكان مرة أخرى .غفت في غيبوبة ورائحته النتنة تزكم أنفها .صباحاً لم

تجده فهرعت تبحث عن الطفل وجدته مكورا على حصير قرب باب البهو يدفن وجهه بين ركبتيه .احتضنته باكية في صمت .بحثت في المنزل واستطاعت أن تحميه بماء بارد حتى دبت فيه الحياة .شرعت في إطعامه من خبز جاف وجدته بعد أن بللته ببعض الماء.

انتبهت كل جوارحها ومزلاج الباب يصدر صريرا ينبئ بقدوم شخص .دلف عبود وخلفه ذلك الوحش ولكنه استبقاه في الخارج مقفلاً الباب دونه .وضع على الطاولة قرطاسا ورقيا عرفت أنه طعام .مدت يدها وتناولته ووضعت قطعة الخبز المتيبس جانباً وشرعت في إطعام الطفل مهملة وجود عبود. جلس هو على أريكة بصمت يراقبها تطعم الطفل وقطع صمته بسؤالها:

.رقية غير موجودة في المنزل

بعد صمت لم تعقب عليه هنية أردف:

.هل تعلمين أين ذهبت؟

لم تجبه فقام متثاقلاً وفتح الباب ووقف بجانبه يسمح لذلك الوحش بالدخول .فزع الطفل وتعلق برقبة هنية .أوقف عبود الرجل بإشارة من يده وخرج معه وأوصد الباب خلفهما.

كانت تلك هي المرة الأخيرة التي أتى فيها عبود .صارت هنية سجينة ذلك المنزل مع الطفل واعتادت حياتها سنين على وتيرة واحدة .يأتي ذلك المخمور ليلاً يحمل الطعام الذي يحصلان عليه في اليوم التالي بعد مغادرته .كثيراً تجده مبعثرا على الأرض .عندما تسمع صوت أقدامه تضع الطفل على الحصير وتهرع إلى الغرفة تنتظره .تنال صفعاتها وهو يصارع شحذ رجولته الخامدة دون جدوى.

كان هم هنية ذلك الطفل الذي يرى الدنيا خلال ذلك السجن العطن .لم يتساءل عن غياب والدته وتناستها هي وجعلته يناديها أمه حتى لا تفتح فيه لواعج ذكرى موتها .زينت له الحياة في خارج زنزانتهما على أبدع وصف .أسهبت في قصص مليئة بالخير وعن أناس أنقياء لم ترهم هي نفسها .جّملت دواخله بأحلام الحرية وحب الناس ووضعت في فمه بسمة ضاعت منها منذ زمن طويل.

١٤

توقف سعيد في سيره ولم يعبأ بعطية التي سبقته وتباطأت في انتظاره. عادت إليه وجلست بالقرب منه تستفسر خطبه بعينيها دون سؤال .قال لها بعد جهد منها وهي تحتويه بيد وتمسح بالأخرى على وجهه:

.أمي في خطر حينما يكتشف عبود غيابي.

أطرقت وعقلت حديثه وهي لاتأمن عبود في يوم من الأيام . قالت له:

. حيث نحن ذاهبان مكان يعرفه عبود جيداً .سوف يأتي للبحث علينا وسأكون جاهزة له.

لم يعبأ لحديثها وقد تملكه الخوف من غدر عبود بأمه .صمم العودة ليحميها هي وتلك الطفلة التي لم تفارقه نظرتها له وهي مغادرة غرفته في آخر لقاء .أحس بكل ظلم الدنيا الذي ألم بطفولته في عينيها.

تركته عطية لاختياره رغم قلقها عليه وجدت بعده عنها عما هو آت خير له وقد لمست فيه نقاء لم تره في إنسان من حولها . قالت له:

. سوف أدلّك على طريق للعودة أكثر أمانا .تعود لي حيث سنفترق وسنكون في أمان.

دلته على كوخ عن بعد دون الذهاب إليه. أسهبت في الحديث معه على رحلته التي ستطول مزيداً من الأمان .دست له في يده مبلغا من المال ومنعته تماماً من الجدال. استقل مركبة عتيقة مليئة بأقفاص الدجاج وبعض الماعز وعلى باقي السطح الطويل للمركبة تل من التبن .وصل أطراف المدينة والشمس تغيب خلف الحقول الممتدة .توقفت المركبة وصاح به السائق يأمره بالنزول وطريقه لن يمر بالمدينة .غادر المركبة ووقف يراقبها تبتعد وقد تركت الحيوانات داخلها أُلفة في قلبه بعيداً من شرور البشر .تابع الطريق الذي تعقب فيه عطية آخر عهده بالمدينة. لاح له عن بعد حجر الرحى العملاق فتريثت قدماه مخبئاً نفسه توجساً من وجود أحدهم فى الحانوت

العتيق .الطريق كان خالياً من المارة عدا بعض الناس يجمعون متاعهم يهمون بمغادرة السوق .بعد أن تأكد من الحانوت المغلق على الطرف الآخر من الطريق تسلل إلى غرفته وقد رقب قنديلا يشع من النافذة العريضة .تراءى له شبح امرأة داخل الغرفة فاطمئن قليلاً .تسلل على الدرج العتيق وطرق الباب برفق يكاد لا يسمعه هو .كأن أحدهم ينتظر خلف الباب سمع صوت ارتفاع المزلاج .خفق قلبه وكاد يهم بالهرب وتسمر مكانه وقد طالعه وجه أمه .تدفقت الدموع من عينيه بغزارة وهي تقف أمامه مشدوهة وكلتا يديها على فمها كأنها تكمم شهقة عالية.

أخذته بين يديها برهة وتركته هلعة لإغلاق الباب كأنها تخفيه . دار بينهما حوار صامت قطعه ظهور الطفلة خلف أمه . تدفقت السعادة في قلبه وهرع يحتضنها كأنه عاش معها طول عمره .قطع دهشة الطفلة ولهفة أمه بسؤال قلق:

.هل أتى عبود هنا؟

عالج سؤاله وهو لا يدري أن أمه تعرفه.

. أنه إنه صاحب البقالة في الطرف الآخر من الشارع وجد حديثه ليس له معنى ولن تفهم أمه الخطر حتى ينقله إليها .قال لها بترجي بترج:

.لقد كنت بقبضته طوال الوقت حتى هربت منه .لن يعرف لي طريق طريقا غيركم.

راعه صمت والدته وصارت كتمثال دون أي تعبير .أضاف متوسلاً:

.يا أمي هنا كلنا في خطر.

نظرت إليه بجمود وقالت له حازمة:

.اذهب أنت وخذ معك عطيات أمانة تصونها.

تسمر وكاد أن يقول لها من هي عطيات ولكنه استدرك ناظراً إلى الطفلة. عاد ينظر إليها بمزيد من التوسل ولكنها صدته حازمة:

.اذهب الآن فهذا الرجل خلف كل شقائنا . اذهب وكن حريصاً على شقيقتك.

١٥

سقط في يد عبود غياب رقية وعيون معتوق تبحث عنها في كل مكان .تفاجأ بدخول معتوق غرفته بعد غياب طويل .منذ موت الكناني واختفاء نصار والد عبود انتفت صفة المرافق عن معتوق وقل بينهما التلاقي.

معتوق يدري جيداً خبث عبود وواسع حيلته ومعجب به كثيراً وقد تعود عليه منذ طفولتهما .لم يكن له ود أو يأمن له جانبا ولكنه حرص على حمايته ومنع التعرض له. اقتسم معه الإرث مناصفة دون أن يخبره ولكن احتفظ بالمنزل مدعياً منح نصار له مقابل خدماته.

جلس معتوق قبالة عبود ينظر إليه عله يعلم ما يجول في خاطره .قطع الصمت قائلاً:

.لقد عثرت على رقية.

تابعه عبود بانتباه وكان داخله قد انهار تماماً .تابع معتوق بتمهل:

.لا أريد أن أراها فقط أريد الطفلة.

تابع معتوق وعبود تكاد تفضحه أنفاسه:

.لا أريد ضجيجا وأنت أفضل من تستطيع تفعل ذلك .سأرسل معك شخصا لا يعرف مهمته وسيكون تحت امرتك. هب معتوق ونظر إلى عبود قبل انصرافه قائلاً:

.لا أريد الطفلة أن تعرف أنني والدها ولا تأت بها هنا.

استعاد عبود أنفاسه بخروج معتوق .استلقى على مخدعه ينظر إلى سقف الغرفة متأملاّ .رقية ما عادت عقبة أمامه تبقت فقط هنية ولكنه يحتاجها لرعاية الطفل. بعد القضاء على هنية أمر عبود الرجل الذي زوده به معتوق أخذ عطية إلى كوخ امرأة رتب معها أمر رعاية عطية .صورة ذلك الرجل الذي أوصلها ظلت الوحيدة العالقة بذهن

الطفلة.

حياة عطية الجديدة كانت أكثر استقرار .لم تكن تلك المرأة قاسية عليها ولكنها حازمة حد القسوة .أوكلت لها من المهام ما فوق طاقة عمرها ولكنها وفرت لها الطعام ما لم تتذوق في رحلة هروبها الدائم .كانت دائماً نظيفة بعد يوم قاس وتنام على مخدع مريح يزيل عنها آلام شقاء يومها .كانت تلك المرأة قليلة الحديث ولا تعيد أوامرها .اعتادت عطية مهامها وقوى ساعدها بين كسر الأخشاب بالفأس وسحب المياه من البئر. أجبرتها المرأة على ذبح الطيور ثم صغار الماعز .كانت هي العامل الوحيد لذلك المطعم الصغير الذي تديره المرأة التى يناديها الجميع بالمعلمة.

ذات يوم أمرتها المعلمة بحمل الفأس ومرافقتها .توغلتا في الغابة خارج المدينة .تسلقتا تلال صغيرة وخاضتا مستنقعات وجداول وصار الفأس في يدها عبأ ثقيلا تحوله من يد إلى أخرى وتضعه على كتفيها أحاييننا .توقفت المرأة عند سهل تنظر في البعيد وكانت المرة الأولى التي ترى عطية الأسى على

وجهها .تابعت نظراتها رأت على البعد خيال رجل قابع تحت شجرة .تحركت المرأة وتبعتها عطية وتوقفتا عند الرجل وكان موثوق اليدين خلف ظهره موصولا بقدميه .على وجهه غطاء من القماش .انتزعت المرأة الغطاء من رأسه وكان مكمم الفم . نظرت عطية له فاغرة فمها كأنها تعرفه .وسط دهشتها قالت لها المعلمة:

.هذا قاتل أمك.

تذكرته تماماً وهو يسحبها أمامها بقسوة وهي طفلة .تذكرت وجهه أمها وهي غارقة في دمائها .تدفقت دموعها ساخنة وهي ترى توهج عيون أمها وهي تغرز المدية في عنق الرجل الذي اغتصبها .كأن المعلمة كانت تجول في رأسها صاحت بها:

.خذي ثأر أمك.

توهجت عينا عطية ورفعت الفأس بكلتا يديها وأنزلته بكل ما أوتيت من قوة على رأس الرجل.

قفل معتوق راجعاً من أعلى الربوة بعد أن شهد الحدث كاملاً .

١٦

تفاجأت عطية بالطفلة برفقة سعيد .أخفت عنها جرحها ونظرت إليه متسائلة، رد عليها وهو قلق يرقب الدماء التي تغطى جانب ثوبها قال لها:

.إنها شقيقتي عطيات

ردت عليه وعيناها معلقتان بالطفلة كأنها ترى معجزة:

.أين أمك

كان مشغولا بالجرح على جبينها وهي لم تهب لمقابلتهما كأنها لا تقوى على ذلك .لم يسهب معها في الحديث مكتفياً بتوضيح غير شاف عن تخلف والدته .بصمتها انتقل بالحديث ليعرف ما حدث. عرف أنها اعتركت مع شخصين لاذا بالهرب .قالت تطمئنه:

.هما ليس من طرف عبود ولكنهما سطوا على الكوخ في غيابي .

استرعى انتباهه آليتها للكوخ ولكنه لم يسهب وعاد لقصة والدته بعد اطمئنانه عليها .قال لها:

.لست مطمئنا كأن والدتي تعرف عبود وتضمر له شراً.

ابتسمت عطية لتعبيره وأحست بنقائه الذي أسرها فيه وأحست معه بأمان لم تجده في أحد من قبل بوداعته وتدفق الحديث بسيطا من قلبه .عادت تنظر إلى عطيات وتحرك شعور مبهم داخلها فودت ان تحتضنها .انتقل شعورها إلى سعيد وهو يراقب رقة عينيها في نظرتها للطفة لم يرها فيهما من قبل .انحنى للطفلة وداعبها على خصلاتها وهمس لها:

.اسمها أيضاً عطيات يمكنك مصافحتها

لم تتحرك الطفلة ولم تدعها عطية إليها وقد عقلت تهيب الطفلة منها.

كأنها انتبهت لحديثه مجدداً قالت له:

.أمك في خطر ونحن في خطر وهذه الطفلة مكانها ليس بيننا.

نظر إليها متسائلاً وقد أحس بتدبير خلف حديثها .تأملت هي الطفلة وحديث تلك المرأة التي أنشأتها ترن في ذاكرتها .آخر حديثها قالت لها:

. جعلت منك امرأة تستطيع أن تحمي نفسها .لست سعيدة بذلك .وصيتي لك حماية ابنتي

أفاقت بسعيد يهزها من كتفها وهي غارقة تتأمل الطفلة .قالت له بهدوء:

.لدي خطة ولكن أولاً نؤمّن الطفلة.

بوجود الطفلة صار سعيد بلا حيلة وأصبحت عطية ملاذه وأسلمها دفته بتسليم تام .شرعت عطية بتحطيم خزانة عتيقة في ركن الغرفة مبنية داخل الجدار .بعد أن تخلصت منها تناولت مدية محدبة من بين طيات ملابسها وصارت تنبش في الجدار بحرص وتخرج بحذر أحجارا مرصوفة بعناية فوق بعضها حتى ظهرت نافذة على الحائط .أدخلت كلتا يديها

داخلها وبتأن أخرجت جرابا جلديا ضخما ووضعته على المخدع بجانبها .طوال الوقت كان سعيد والطفلة يرقبانها بفضول لم تهتم به .أصلحت من جلبابها ورفعت الجراب ووضعته بعناية على ظهرها ممسكة به بيدها من الأمام. انتصبت واقفة يحمل ظهرها ثقل الجراب وتوجهت صوب الباب قائلة بهدوء:

.هيا بنا!

قادتهما في طرقات القرية بدراية وتوقفت أمام منزل واسع حوله حديقة هادئة جميلة بغير تكلف .طرقت الباب برفق. ولم ينتظروا طويلاً أطلت عليهم امرأة في ملابس هادئة أنيقة. اتسعت عيناها الضيقة دهشة وهي تنظر إلى عطية .أخذتها في أحضانها بحرارة لم يطفئها برود عطية كأنها اعتادت عليها هكذا .صافحت سعيد بترحاب وشهقت عالياً وهي تنظر إلى الطفلة واقتلعتها من الأرض وغاصت بها في أحضانها .سألت عطية بلهفة:

.هذه بنتك؟

ولم تنتظر جوابا وأردفت متسائلة تنظر ببسمة عريضة إلى سعيد:

.هل هذا زوجك؟

لم تفطن لارتباكه لانشغالها بالطفلة واصلت حديثها تدعوهما إلى الدخول قائلة:

.سوف يكون الطعام حالاً أماكما.

غابت في المنزل وهي لا تزال تحمل الطفلة بسيل منهمر من المداعبة والحديث .لم تكن عطية متفاجئة وأشارت إلى سعيد بالجلوس تطمئنه .عادت المرأة تحمل الطعام بيد وبالأخرى تعلقت بها عطيات بألفة .رقب سعيد عطية وهي تتناول الطعام باستغراق وسلام لم يره فيها من قبل لم يتلعثم سعيد في جواب أسئلة المرأة فهي كانت تتعداها وتتحدث بلا انقطاع . ظلت عطية طوال الوقت صامتة تراقب الطفلة ملتصقة

باطمئنان بمضيفتهم .توقفت المرأة عن الحديث عندما أبدت عطية استعداداً للرحيل .دفعت الكيس الجلدي إلى المرأة التي أخذته بدهشة ودون أن تفتحه كأنها تعرفه قالت لها.

.ماذا تنوين هذه المرة؟

نظرت إليها عطية ملياً وقالت لها بنبرات واضحة وحازمة:

. ستبقى الطفلة معك وإذا لم نعد فهي لك.
ضحكت المرأة بصوت عال أدهش سعيد وقالت تنظر إليه كأنها تهون عليه قائلة:

. ستعودان ،عطية جنيّة لا تقهر ولكن لن أعطيكما طفلتي يمكنكما زيارتها متى تريدون.

اتسعت ابتسامة عطية لزيادة اتساع عيني سعيد وخرجت دون وداع عطيات التي كانت مشغولة تماماً بمداعبات المرأة.

عندما صارا في قارعة الطريق طواعية ردت عطية على الحيرة الدائرة في رأس سعيد:

. إنها مثل شقيقتي أنشأتنا امرأة واحدة بطريقة مختلفة تناسب حالتينا.

لم يكن الحديث شافياً ولكن أطمأن سعيد على عطيات وظل يرتقب الخطوة القادمة من عطية.

عادا إلى الكوخ في صمت .أزاحت عطية المخدع بهدوء ونبشت في الأرض تحته وأخرجت لفافة جلدية وبسطتها بعناية على الفراش .كان سعيد يرقب في اهتمام وزادت دهشته عندما ظهر فأس ومدية داخل اللفافة داخل جراب جزء من القطعة الجلدية .خلعت ردائها وبعناية ودراية التفت داخل القطعة الجلدية .قالت له تشبع فضوله:

.هذه مدية أمي أما الفأس لي.

كان سعيد ينتظر بتوجس قرار عطية بعيداً من تلك التفاصيل التي تنبئ بحرب قادمة .بعد أن أكملت عطية تمام عتادها قالت له بهدوء:

.لن ننتظر عبود يأت إلينا سنسعى نحن إليه.

١٧

بموت رقية توقف نبش معتوق واستكانت هواجس عبود وخوفه من معتوق ولكنه ظل واغر الصدر عليه وقد صار هو خليفة الكناني وهو لا قيمة له .لم يكن معتوق يحصى عليه خطواته ويتغاضى عن هفواته وصرفه بلا حدود دون الرجوع إليه .لم يكن يأمن له وأبعده تماماً عن مكان عطية التي كان يراقبها بنفسه عن بعد.

كانت عطية تملكت المطعم تماماً وقد وهنت المعلمة وتملكها العمر ولكنها لم تترك مكانها داخل المطعم .ذات يوم دلف إلى المطعم بعض المخمورين وتحرش أحدهم بعطية .فاجأته بضربة شجت رأسه .تحول المطعم إلى معترك تحطم فيه الأثاث وتطايرت الأواني .انتهت عطية إلى المعلمة قد سقطت على الأرض تحت أرجل المعتركين .تمكنت من الوصول إليها وسحبتها إلى الكوخ المتاخم للمطعم الذي يعيشان فيه .بعد أن اطمأنت عليها هبت لتغادر ولكنها أوقفتها بإيماءة من يدها .

جلست قبالتها وقد تعودت إلا تعصى لها أمرا. قالت لها بصوت ضعيف ولكن نبراته واضحة:

.والدك على قيد الحياة .

عادت عطية في جلستها إلى الخلف كأنها تلقت صفعة .لم تفكر في حياتها أن لها أبا ولم تتساءل عن ذلك حتى بينها وبين نفسها . نظرت إلى المرأة بحدة وقالت لها:

.لماذا تخبريني الآن؟

تجاهلت المرأة سؤالها وواصلت حازمة أمرها:

. والدك يعرف أنك هنا وهو خلف مقتل والدتك بعد هروبها منه وأنت في أحشائها.

اتسعت عينا عطية وكأنما وصل تساؤلها إلى المرأة قالت بهدوء:

.ذلك الرجل الذي ثأرت منه هو الذي قتلها .لست متأكدة أهي أوامر والدك أو فعلها وحده ولكن ما أنا متأكدة منه هو الذى أرسله ليعود بك.

كأنها تريد أن تجعل حديثها جرعات مخففة أضافت:

.هو من أمر بقتله بيدك وكان حاضرا.

صرخت عطية في غضب:

.لماذا تخبريني الآن؟

ردت المرأة بنفس الهدوء:

. ستعودين لوالدك وكوني حذرة ولا تخاطبين أحدا .لقد أعددتك لهذا اليوم .شقيقتك ستدلك على العنوان وهي تعلم الكثير .هي ليست مثلك ولكن خذي منها الحكمة.

صمتت قليلاً ولكيلا تعود عطية لغضبها أردفت:

.لم يتبق لي الكثير لذا أقول لك الآن.

غادرت عطية الكوخ وقد عصفت بها أفكار متباينة وصار جسدها ثقيلا لا تحس بوقع أقدامها على الأرض .توقفت أمام الباب ترقب رجال المخفر يحيطون بالمطعم ويخرجون الجرحى محمولين على الأيادي. عادت إلى داخل الكوخ وهي لا تعلم أن والدها بين هؤلاء المصابين .هالها الأمر وسقط في يدها عندما وجدت المعلمة قد فارقت الحياة. جلست أمامها زمنا طويلا انقلبت فيه كل تفاصيل حياتها القاسية .نظرت طويلاً إلى أرض الكوخ وقامت بقرار لا مرد له .أزاحت الحصير من الأرض واقتلعت المكعبات الصخرية الضخمة بمشقة .أزالت التراب تحتها حتى ارتطمت يدها بجسم صلب. برفق أزاحت باقي التراب حتى بان السطح الخشبي كاملاً .رفعت اللوح الخشبي وبان الصندوق كاملاً .وقفت تتأمله وقد ساعدت في دفنه مع معلمتها وهي صبية ولم يتوارد في ذهنها لماذا تقوم بهذا العمل. حملتها برفق وأنزلتها برفق داخل الصندوق وأغلقته بغطائه بإحكام وأنزلت عليه التراب وأعادت الحجارة مكانها وأعادت بالحصير .غادرت إلى منزل شقيقتها .عندما فتحت لها الباب

دخلت دون أن تنظر إليها وجلست على مقعد ضخم .لم تتبعها شقيقتها وظلت واقفة خلف الباب .أغلقته ودون أن تبرح مكانها قالت لها كأنها تعفيها من التوضيح:

.لقد رحلت أليس كذلك؟

دون أن تنتظر إجابة منها تناولت غطاء من المخدع ووضعته عليها قائلة:

.غداً سأغادر معك

لم تتجاوب مع عيني عطية المتسائلة وعقبت بهدوء:

. إلى والدك .لقد زودتني أمى بكل ما نحتاجه .من هذه اللحظة أنتِ بكماء لكيلا تفسدي شيئاً

فوجئ عبود بالفتاتين أمامه داخل غرفة معتوق .قبل أن يفيق من دهشته سألته رشيدة عن معتوق .أشار بيده إليه ممداً على الفراش .اضطربت قليلاً ولم يكن ذلك في حسبانها ولكن تملكت نفسها بسرعة وقالت له:

.ما حجم أصابته؟

رد عليها وداخله شامت:

.كبير ربما لن يعاود السير مرة أخرى.

طلبت منه أن يغادر ويتركهما معه فاستهجن ذلك بابتسامة ساخرة .فقالت له حازمة:

.لا أعرف من أنت وهذه التي برفقتي ابنته.

تفاجأ سعيد وفضحه ارتباكه وصدمته نظرة عطية القاسية مما أفقده تماسكه .نظر إلى معتوق مستنجداً ولكنه أشار له بالمغادرة.

بقيت الفتاتان مطولاً مع معتوق مما أثار حنق عبود .نادى عليه معتوق وطلب منه مرافقة عطية وتهيئة مكان لإقامتها . عندما عادا لم تكن رشيدة موجودة.

في اليوم التالي تفقد الغرفة التي بها أشياء معتوق ووجدها قد نبشت .هرول إلى عطية ولم يجدها في غرفتها .ذهب مسرعاً إلى معتوق وتسمر عندما وجد عطية هناك .قال لمعتوق غاضباً: .لقد سرقتا مالك.

رد معتوق:

.لا تقلق المال محفوظ في أمان.

رد عبود بغلظة لم يتماك فيها نفسه:

.ليس مالك وحدك.

رد معتوق غاضباً:

.لقد أخذت مالك كاملاً وتحتفظ به كاملاً في الحانوت.

صمت عبود وقد شعر بتعجله. تيقن أن المال في حوزة الفتاة الأخرى ولن يصل إليها دون مراقبة عطية.

١٨

في طريق العودة عم صمت دائم بين سعيد وعطية .تعجب لنفسه وهو يسير بجانبها تتصادم أكتافهما بألفة وقبل مدة ليست بالطويلة كان سجينها تنقبض أنفاسه عندما تقترب خطواتها منه .تذكر وجهها الجامد ونظراتها القاسية وقد تغيرت ملامحها كأنها امرأة أخرى. شعر بحنين دافق إليها وقد غمرته بألفة كأنهما عاشا معاً سنين طويلة .امتدت يده وتناول كفها فأصابتها رعشة كأن دواخله تدفقت بين أضلعها. توقفت باندهاش بعيون متسائلة وجهها بين كفيه ومال طابعاً قبلة طويلة على فمها .قبضت به قبل أن ينسحب منها وأجلسته على الأرض وجلست ملتصقة به هامسة:

.ربما تكون آخر لقاءاتنا

استلقى على الأرض على ظهره ولا زال صدره يعلو ويهبط من حرارة عناقه لها .همس وقد تبقى من اللقاء فقط تشابك يديهما:

.لا أستطيع هضم قتلك عم معتوق.

سحبت يدها منه برفق وعمّ صمت طويل .أجلست نفسها باستكانة لا تنوى المغادرة .واصلت صمتها تتأمل ما ستقوله وقالت كأنها تمهد لحديث طويل:

.هو ليس كما تتخيله بل أكثر سوءً من عبود.

أحجم عن الرد وقد فطن أن ذلك ليس أصل الحديث .واصلت حديثها:

.لم أسع لقتله.

تواصل حديثها كأنها تقنع نفسها:

. أعلم هو خلف شقاء أمي وذعر طفولتي ووراء قتلها ولكن حاله كان يكفيني عقابا له ولم أعطف عليه يوماً.

صمتت ملياً واسترسلت:

.عبود كان يشعرني دائماً أني في خطر والقتل جزء من تكوين أبي.

صمتت وهي تأخذ نفسا عميقا وهي تذكره لأول مرة كأبيها. أحس بها سعيد وهم بالقبض على يدها ولكنه أحجم كيلا يوقف استرسالها. أمسكت عن الاسترسال وعمدت لخاتمة حديثها قائلة:

. لقد سقط فوقي وأنا نائمة .عندما غرزت المدية في عنقه لم أكن أدري من هو.

عمّ صمت عميق وتذكر سعيد قلق عبود ذلك اليوم وهو يرقبه من نافذة غرفته باضطراب بائن فتيقن أنه كان خلف ذلك التدبير عم بينهما صمت وليس لديها ما تضيفه .هبت واقفة واستمرت في سيرها دون انتظاره. لحق بها وأحجم مرات عديدة عن الحديث طوال الطريق .تباطأت خطواتهما على حدود المدينة وتسللا خلف حجر الرحى العملاق وقبعا خلفه يرقبان الغرفة على الطرف الآخر من الطريق .على ضوء المصباح الزيتي كان هناك خيال يتحرك وبعد فترة تيقنا هناك شخصان . بدأ كأن هناك عناقا أو عراكا فشب سعيد

مسعوراً .قبضت عطية على يده تمنعه .حاول الفكاك منها ولكنها تشبثت به وطرحته على الأرض .أمرته بصوت خافت ولكنه جازم:

.ستبقى هنا ولا تبرح مكانك.

تسللت بخفة أخافته وتأكد أنها تعرف ما تفعله .تسلقت الدرج في قفزات قليلة واختفت عن عينيه لحظات وظهرت وهى تتسلق الحائط كالهرة وبقفزة واحدة دلفت إلى المنزل خلال النافذة .اختلطت خيالات عدد من الأشخاص وانطفأ المصباح .توقف فزعاً وتعالت أنفاسه .قبل أن يتخذ قراره أفزعه صوت اصطدام أرجل خيول بالأرض قادمة .استلقى مختبئاً خلف الحجر يرقب مركبة بصندوق ضخم خلفها تجرها الخيول .تكور ممعناً في الاختباء والمركبة تتجه صوبه . توقفت أمام الحانوت العتيق وترجل رجلان وتبقى شخص واحد على المركبة. اقتلع الرجلان إحدى دفتي باب المتجر وتنحيا عنه .ترجل الشخص الثالث فكادت تخرج منه شهقة

وقد تيقن أنها رشيدة شقيقة عطية .دلفت إلى الحانوت ولم تغب طويلاً عادت بجراب كبير أعطته أحد الرجلين واعتلت المركبة .قذف الرجل الجراب داخل الصندوق وعاد كلاهما إلى المركبة .تحركت الخيول عبر الشارع مارين بجواره وتوقفت المركبة على ضفة الشارع الأخرى .ترجل الرجلان واعتلا الدرج فزادت ضربات قلبه وأمعن في التخفي .بعد وقت قصير تلاحقت فيه أنفاسه نزل الرجلان يحملان لفافة ضخمة أيقن انها جسد إنسان .أودعاه الصندوق برفق وعادا وأتيا بآخر . عندما أتيا بالثالث كان قلبه قد تمزق وانهار داخله تماماً وتمدد على الأرض .ترجلت رشيدة عن المركبة وسارت عائدة إلى الحانوت فتابعها بتخوف وفزع .تعدته حتى صارت أمام الحانوت وتوقفت وفجأة التفتت إلى مخبأه واخترقته بعينيها . شب واقفاً وهم بالهرب ولكن ارتطم رأسه بشيء ثقيل وسقط مغشياً عليه.

١٩

أفاق سعيد فزعاً وتلفت حوله وسرعان ما ألف المكان حوله . بتأمله ما حوله تأكد أنه معتقل مع عطية وعبود ولكن بدا مهملا وعطنا واختل نظام الخزائن في الغرفة ويبعضها مفتوحة وخالية .حاول النهوض وفشل ولم تسعفه قوته . توقف حذراً وقد شعر بخطوات ثقيلة قادمة .دخلت الغرفة امرأة بدينة رثة الثياب بالكاد تقوى على السير .سارت نحوه تحمل وعاء قديما عليه طعام .جلست بتمهل بجانبه وشرعت لإطعامه في فمه .نفر منها منزعجاً وانسحب مبتعداً. فذعرت المرأة كأنها رأت شبحاً .تلاشى خوفها وصار دهشة تحولت إلى ابتسامة ذابلة ولكنها مرحبة .لم يأمن لها وجاهد مغادراً المخدع .لم تمنعه ولم تتحدث معه وتابعته بعينين مشجعتين . سار مترنحاً على قدم دون الأخرى. اتكأ قليلاً على الباب يستعيد توازنه والتفت إليها ليتأكد أنها لا تتبعه .دلف إلى فناء الدار وجد آخرين في أماكن متفرقة .اشرأبت الأعناق في دهشة والوجوه تحدق به كأنه شبح آت من السماء .تخطاهم بفزع

وكاد يسقط مرتين قبل أن يبلغ الباب .خرج وتسمر وقد ضاع بصره والشمس تملأ عينيه. بإعياء والدموع تنهمر من عينيه بلغ ظل الأشجار وبدأت عيناه تعاود حيويتها حتى أبصر مرة أخرى ولكن بجهد ورؤية مهزوزة . التفت إلى المنزل وإذا بالجميع خرجوا واصطفوا صامتين يرمقونه .أمعن في الهرب على السهل يرغم قدمه اليمنى على السير وتعوقه الأخرى .بلغ بقايا الغجر الصدئة فاستكان على ظل هيكل مركبة ضخمة وغاب في اعياء في نوم عميق.

أفاق وقد أظلمت الدنيا من حوله .تلفت حوله برعب وكادت تخرج منه صرخة وهو يرى خيالا ينتصب من بعيد .تمعن فيه وتأكد أنها عطية .تهلل وهب من مكانه مترنحاً نحوها .تعثر وسقط وقاوم للنهوض والعدو إليها. عندما تخر قواه يجلس يلتقط أنفاسه وينظر إليها لا تزال هناك .جمع كل قوته وصمم الوصول إليها .صار يعدو وحاول أن ينادى باسمها علها تهتدي إليه ولكن توقفت الكلمات في حلقه وخرج صوته حشرجات جافة .تعثر على حجر على الأرض وسقط على وجهه فاقداً

وعيه .أفاق فجراً وتلفت يبحث عن عطية ولم يجد لها أثرا . ألف المكان من حوله وعرف أين هو فخطرت له شقيقته عطيات .قام بصعوبة وأخذ يتلمس طريقه بإنهاك حتى بلغ منزل رشيدة .نفس الحديقة الهادئة والمبنى البسيط الأنيق الشيء الوحيد الذي وجده تبقى على حاله. أختبأ مسرعاً خلف شجرة قصيرة فروعها كثيفة تلامس الأرض وقد سمع صرير الباب .خرجت فتاة فارعة جميلة داخل ثوب بديع يصرخ بالألوان الزاهية .توقفت في فناء الحديقة تنظر إلى المنزل كأنها تنتظر أحدا .تابع نظراتها ورأى امرأة تحكم إغلاق الباب. اتسعت عيناه عندما التفتت وتيقن أنها رشيدة شقيقة عطية .انتقلت نظراته مسرعة للفتاة وتفحص وجهها ووجد فيها ملامح عطيات .وهو تحت دهشة صراع التصديق والتكذيب التفت واصطدمت عيناه بعيني المرأة الضيقتين تخترقه فتقهقر إلى الخلف في فزع وأمعن في الهرب. توقف داخل الغابة على أطراف المدينة يلتقط أنفاسه. انتبه إلى خرير مياه عن بعد وشعر بعطش شديد وقد جف حلقه .

اهتدى إليه دون مشقة وبخطوات حذرة خاض فى مياه الغدير المنسابة وانحنى ليشرب منه فارداً كفيه .فزع وهو يهم بالشرب من صورته على سطح الماء .شعره أشعث كثيف وذقنه كثيف تدلى مخفياً عنقه ومعالم وجهه .كاد أن يلتفت كأن إنسانا خلفه ولكن تيقن أنه هو .روى ظمأه وخلع عنه ملابسه الرثة المتسخة .غسلها بعناية وعلقها على غصن شجرة. نزل إلى الغدير عارياً وافترشه متمهلاً .لسعته المياه ولكنه تلذذ لها وأرخى جسده حتى تعودها .استحم في المياه المندفعة زمنا طويلا كأنه ينفض غبار كابوس التصق بجلده .نام على ظل الشجرة عارياً وأفاق بلسعة برد تسري بجسده من نسيم هب اقشعرت له مياه الغدير وتراقصت معه الأغصان تنفض عنها أوراقها المتيبسة .جفت ملابسه اردتداها على مهل وبحذر حتى لا يزيد من تمزقها .مالت الشمس إلى الغروب تلفت يبحث عن وجهة له .أحس بجوع شديد فتذكر الكوخ على أطراف المدينة وبجانبه ذلك المطعم العتيق المتصدع .وصل إلى وجهته ووجد الكوخ قد تحول حانوتا عصريا يعج بالأزهار وبجانبه مطعم

أنيق نفسه الذى تركه حطاماً .وهو مشدوه يتأمل حوله تقدمت منه امرأة بدينة من داخل المطعم كاد يفزع منها ولكنه انتبه لإناء الطعام في يدها وتعلوها نظرة مشجعة .عندما لم يتجاوب معها وضعته على الأرض وانصرفت تطمئنه وتزيح عنه الانزعاج الذى قرأته فى وجهه. جلس وأكل بنهم لم يتذوق فيه ما يأكله .فرغ من طعامه وشعر بالحياة تسري في جسده وأصلح من جلسته .حانت منه التفاتة إلى نافذة متجر الزهور وجد خلفها رشيدة ترمقه بنظرة جامدة .هب هلعاً وكاد يسقط وأمعن في الهرب داخل الغابة.

سار طوال الليل حتى بلغ منزل عبود وطاف حوله ولم يجرؤ على الدخول. ذهب إلى بقايا مخلفات الغجر وقضى ليلته هناك .في الصباح قادته قدماه إلى المدينة وسلك نفس الطريق الذي تبع فيه عطية إلى ذلك المصير. لاحت له عن البعد ملامح الحارة وقد تغيرت كثيراً. أصابته الألفة عندما وقع بصره على حجر الرحى. توقف أمام الحجر يتأمل حوله. لقد اختفى الحانوت تماماً وحلت مكانه حديقة يلهو فيها بعض الأطفال .

جلس على الحجر يتأمل المبنى الجديد حيث كانت غرفته الضيقة .جفل حين حانت منه التفاتة ووجد طفلا يقف أمامه يحدق به .قال له الطفل متسائلاً:

.هل أنت عم معتوق؟

انتبهت كل حواسه ونظر مصغياً للطفل .واصل الطفل:

.جدي يقول هذا الحجر ملك لعم معتوق.

اعتلت وجه سعيد ابتسامة شاحبة وقد كان وجهه قد نسي الابتسام .هرول الطفل إلى زملائه دخل الحديقة وسمعه عن بعد يقول لهم:

.لقد عاد عم معتوق.

انتهت